

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له  
شهادة نذخرها ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله  
وصفيه وخليله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه  
واقفنى أثره إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً  
أما بعد

فنشرع في تفسير جزء المجادلة يوم الأربعاء الموافق ( ١٠ / ٤ / ١٤٤٢ هـ ) سائلين المولى جل وعلا أن يعيننا  
ويسددنا ويعلمنا ويفهمنا ويلهمنا رشدنا إنه جواد كريم والحمد لله رب العالمين .

## سورة المجادلة مدنية وآياتها (٢٢)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة المجادلة

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١)

عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ . رواه ابن ماجة وصححه الألباني . وذكره القرطبي وقال : والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقال الماوردي : هي خولة بنت ثعلبة . وقيل : بنت خويلد . وليس هذا بمختلف لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحدٍ منهما . وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت . انتهى .

وقال السيوطي في الدر : أخرج أحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال : حدثني خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت عليّ كظهر أُمي . ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فما برحت حتى نزل القرآن فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه ثم سُري عنه فقال لي : يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ثم قرأ علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى قوله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة . قلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال : فليصم شهرين متتابعين . قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر قلت : والله ما ذاك عنده . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإننا سنعيّنه بعرقٍ من تمر . قلت :

وأنا يا رسول الله سأعينه بعري آخر . قال : فقد أصبت وأحسنت ، فاذهبي فتصدقني به عنه ، ثم استوصي بأبن عمك خيراً ، قالت : ففعلت . انتهى .

وقال القرطبي : وقد مر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمارٍ فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عميراً ثم قيل لك عمر ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب . وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ . انتهى .

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ سمع إدراك واستجابة .

﴿ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ تخاصمك وتراجعك في زوجها .

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي تطلب من الله أن يرحم حالها وأن يفرج عنها ما أصابها من الهم والحزن .

﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ مراجعتكما الكلام بينكما .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع كل شيء ، ويبصر كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء . فقد سمع محاورتكما وأبصر مكانكما ، ولا يخفى عليه شيء من أمركما .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝٢٠﴾ الظاهر هو أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي . وكانوا يقولونه في الجاهلية ويرون أنه طلاقاً ، فأنكر الله جل وعلا هذه المقولة من أصلها لأنها كذب فقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ وجعل القول بها منكراً وزوراً فقال ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ قال الطبري : المنكر من القول الذي لا تعرف صحته ، والزور الكذب ... عن قتادة قال : الزور الكذب . انتهى . ثم قال ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝٢٠﴾ ليبين أن القائل بما قد ارتكب ذنباً يستوجب عليه طلب العفو والمغفرة من الله العفو الغفور . وقال بن كثير : أي : عما كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا أيضاً خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختي . فقال

(أختك هي؟) فهذا إنكار ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ، لأنه لم يقصده ، ولو قصده لحُرمت عليه لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك انتهى. وقال القرطبي رحمه الله وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ٢ إذ جعل الكفارة عليهم مخصصة لهم من هذا القول المنكر . انتهى.

ومن الظهار أن يقول أنت عليّ كظهر אחتي أو ابنتي أو أحد محارمه في قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة ومالك والشافعي على الصحيح من مذهبه وأكثر الفقهاء .

وروى أبو ثور عن الشافعي أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها وهو مذهب قتادة والشعبي قال ذلك القرطبي في تفسيره .

وإن قال أنت عليّ كبطن أمي أو رأسها أو رجلها ونحو ذلك فهو ظهار ، كما لو قال بطنك أو رأسك أو رجلك طالق كان طلاقاً . وقال أبو حنيفة إن شبهها بعضوٍ يحل له النظر إليه لم يكن مظاهراً . وعند الشافعي في قول : لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده . والصحيح الأول لأن النظر إلى أي عضوٍ من أعضاء الأم على جهة الشهوة محرم ، بخلاف الزوجة ، فكان قوله للزوجة تحريماً لما أُحِلَّ له منها فكان ظهاراً .

وإن قال أنت عليّ كأمي أو مثل أمي أو روح أمي فإنه يعتبر فيه النية لأن اللفظ ليس بصريحٍ في الظهار لاحتمال أنه أراد كأمي في المحبة أو الاحترام أو الحماية ونحو ذلك وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وقال مالك هو ظهار إلا أن ينويه طلاقاً فيكون طلاقاً ، فإن لم ينو شيئاً كان ظهاراً ، لأنه أطلق تشبيهه امرأته بأمه وهي محرمة عليه فكان ظهاراً .

وإن وطئ امرأته التي ظاهر منها قبل أن يكفر فعليه التوبة والاستغفار ، وليس عليه إلا كفارة واحدة لما روي عن ابن عباس أن رجلاً ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال ما حملك على ذلك ؟ قال يا رسول الله رأيت بياض حجلها في القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره ألا يقربها حتى يكفر . رواه أبو داود والترمذي وحسنه بن حجر والألباني ، ولم يأمره بكفارتين ، فدل على أنه ليس عليه إلا كفارة واحدة . وقال مجاهد وقبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان ، وهو مروى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه . والحديث حجة عليهم .

وإن كان عنده أكثر من امرأة فقال : أنتن عليّ كظهر أمي فهو ظهارٌ من الجميع وتكفيه كفارة واحدة وقد روى الدار قطني عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة . انتهى .

وإن قالت الزوجة لزوجها أنت عليّ كظهر أمي فليس بشيء لأن العصمة بيد الزوج لا بيدها فهو الذي يطلق وهو الذي يظاهر ، وقال بعض العلماء عليها كفارة يمين ، وروي عن الزهري أنها تكفر كفارة ظهار ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيها . ولا شك أن الأول أصح ولا دليل على الأقوال الأخر .

قال الطبري : واختلفت القراءة في قراءة ذلك فقرأته عامة قراءة المدينة سوى نافع وعامة قراءة الكوفة خلا عاصم ( يَظَاهِرُونَ ) بفتح الياء وتشديد الظاء وإثبات الألف وكذلك قرءوا الأخرى بمعنى يتظاهرون ثم أدغمت التاء في الظاء فصارتا ظاءً مشددة ، وذكر أنها قراءة أبي ( يَنْظَاهِرُونَ ) وذلك تصحيح لهذه القراءة وتقوية لها ، وقرأ ذلك نافع وأبو عمر وكذلك بفتح الياء وتشديد الظاء غير أنهما قرآه بغير ألف ( يَظْهَرُونَ ) وَقرأ ذلك عاصم { يَظَاهِرُونَ } بِتَخْفِيفِ الظَّاءِ وَضَمِّ الياءِ وَإِثْبَاتِ الألفِ .

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْقُرَاءَاتِ مُتَقَارِبَاتٌ الْمَعَانِي . وَأَمَّا ( يَظَاهِرُونَ ) فَهُوَ مِنْ تَظَاهَرَ فَهُوَ يَتَظَاهَرُ . وَأَمَّا ( يَظْهَرُونَ ) فَهُوَ مِنْ تَظَهَّرَ فَهُوَ يَنْظَهَّرُ ، ثُمَّ أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الظَّاءِ فَقِيلَ : يَظْهَرُ وَأَمَّا { يَظَاهِرُونَ } فَهُوَ مِنْ ظَاهَرَ يُظَاهِرُ ، فَبِأَيِّ هَذِهِ الْقُرَاءَاتِ الثَّلَاثِ قرأ ذلك الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ . انتهى .

وقال القرطبي : قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وخلف ( يَظَاهِرُونَ ) بفتح الياء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ( يَظْهَرُونَ ) بحذف الالف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء . وقرأ أبو العالية وعاصم وزر ابن حبيش ( يُظَاهِرُونَ ) بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . انتهى .

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢) ثم بين المولى جل وعلا الحكم الشرعي لمن وقع في هذا الذنب وهو الظهار أن عليه أن يعتق رقبةً قبل أن يمس زوجته . وقوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قال ابن عباس : يندمون فيرجعون إلى الألفة . وقال سعيد بن جبیر : يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم . وقال قتادة : حرمها ثم يريد أن يعود لها فيطأها . قال البغوي : قال مالك وأصحاب الرأي : هو العزم على الوطء . انتهى . وقال الطبري : اللام في قوله ﴿ لِمَا قَالُوا ﴾ بمعنى إلى أو في لأن معنى الكلام ثم يعودون لنقض ما

قالوا من التحريم فيحللونه . وإن قيل معناه : ثم يعودون إلى تحليل ما حرموا أو في تحليل ما حرموا فصواب لأن كل ذلك عودٌ له ، فتأويل الكلام : ثم يعودون لتحليل ما حرّموا على أنفسهم مما أحله الله لهم . انتهى .

وقال أبو العالية : يرجع فيما قال . وهو بمعنى قول سعيد وقتادة . وقيل بل عني به تكرار اللفظ أي يقوله مرةً أخرى فحينئذٍ تجب عليه الكفارة وهو مذهب الظاهرية داود وابن حزم وهو قولٌ باطل لمخالفته للأحاديث الثابتة في سبب نزول الآيات وأن الكفارة وجبت بالقول الأول لمن أراد نقضه . ولا يظهر لي أن أبا العالية رحمه الله أراد هذا وإن كان البغوي وغيره نسب القول به إلى أبي العالية .

ومثل هذا قول من قال لا تجب الكفارة إلا بالجماع بعد المظاهرة ، وأن المراد بالعود المواقعة ، نسبه البغوي إلى الحسن وقتادة وطاووس والزهري ، ولا شك أنه قولٌ باطل ، إذ الأدلة تدل على تحريم الجماع بعد المظاهرة إلا بعد التكفير . ففي قصة أوس وخولة ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أوساً بالكفارة حين قال ما قال قبل أن يجمع امرأته . وقبل أن يكرر اللفظ .

وقال الشافعي : لا تجب الكفارة حتى يمسكها عقيب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها فلم يفعل ، فإن طلقها عقيب الظهار في الحال أو مات أحدهما في الوقت فلا كفارة عليه لأن العود للقول هو المخالفة ولم تحصل . انتهى . والصحيح أن الكفارة لا تجب إلا بالعود لما قال وهو العزم على الوطء ، فإن لم يعزم على الوطء فلا تجب الكفارة عليه لأنه لم يعد إلى ما قال بنقض قوله .

وقوله ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أطلقت هنا وقيدت في القتل بالإيمان فيحمل المطلق على المقيد يدل لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الجارية ( أعتقها فإنها مؤمنة ) فدل على تقييد العتق بالإيمان .

وقوله ﴿ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾ قيل المراد بالمماسسة الجماع وعليه فلا مانع أن يباشرها فيما دون الفرج وهو قول الحسن وسفيان ، وقيل بل عني به كل معاني المسيس فلا يمس جسدها مطلقاً وهو مروى عن الحسن .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِمُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤١ ﴾ فمن لم يجد رقبةً يعتقها أو وجدها ولكنه لا يجد ثمنها فهنا ينتقل إلى الكفارة الثانية وهي صيام شهرين متتابعين لا يفصل بينهما بفطرٍ إلا لعذرٍ كمرضٍ أو سفرٍ أو يوم عيد وهو قول عطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي وقتادة وعمرو بن دينار . وقال أبو جعفر - أظنه الباقر - وإبراهيم النخعي يستأنف كل من أفطر في الشهرين المتتابعين

سواءً أفطر بعذرٍ أو بغير عذر إلا الحائض ذكر هذه الأقوال أبو جعفر بن جرير الطبري ورجح الأول لإجماعهم على أن الحائض تتم ولا تستأنف ، لأن إفطارها كان بعذرٍ من قبل الله ، فكذلك كل من كان عذره من قبل الله فمثلها .

ولا يحل له أن يطأ امرأته في الليل حتى تتم الشهران لأن قوله ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾ على جملة الشهرين . فمن لم يستطع الصيام لمرضٍ يخاف ازدياده أو تأخر بروه أو يشق عليه الصيام معه أو كان كبيراً يشق عليه الصيام أو كان شديد الشهوة يخاف الشبق الذي يسبب تلف الخصية أو تشققها من شدة الشهوة فإن عليه أن يطعم ستين مسكيناً لكل مسكينٍ نصف صاعٍ من قوت البلد ، وهذه الكفارات على الترتيب لا على التخيير ، فلا يجوز له أن يطعم وهو يقدر على الصيام ، ولا يجوز أن يصوم وهو قادرٌ على العتق بل يبدأ بالعتق ثم الصيام ثم الإطعام .

﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي فرضت عليكم هذه الأحكام لأجل أن يكمل إيمانكم بالله ورسوله حين تدركون المصالح العظيمة من تشريع هذه الأحكام فتعلمون أنها من عند الله . ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي أحكام الله التي فرضها وحدّها لكم لتعملوا بها ولا تخالفوها . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وللكافرين الذين كفروا بالله ورسوله ولم يعملوا بأحكامه عذابٌ موع . قال الزحيلي في الوسيط : ذلك الترخيص والتسهيل من النقل من تحرير رقبة إلى الصوم والإطعام ، وتشريع الكفارة بسبب الظّهار ، لتصدقوا بشرع الله وأمره ، وتلك حدود الله فالتزموها وقفوا عندها ، وللكافرين المتجاوزين حدود الشرع عذاب مؤلمٌ شديد على كفرهم وهو نار جهنم ، وعذاب في الدنيا ، وهذا وعيد وتهديد . انتهى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتَبُوا ﴾ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ قال قتادة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعادون الله ورسوله ﴿ كِتَبُوا ﴾ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿ خَزُوا ﴾ كما خزي الذين من قبلهم . انتهى . وقال الطبري ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إن الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه ، فيجعلون حدوداً غير حدوده ، وذلك هو المحادة لله ورسوله ﴿ كِتَبُوا ﴾ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿ غِيظُوا وَأَخْزَوْا ﴾ كما غيظ الذين من قبلهم من الأمم الذين حادّوا الله ورسوله ، وخزّوا . انتهى . وقال القرطبي ﴿ كِتَبُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : أخزوا كما أخزي الذين من قبلهم . وقال ابن زيد : عذبوا . وقال السدي : لعنوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . انتهى .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ يبعث الله الخلائق جميعاً يوم القيامة فيخبرهم بما عملوا لأنهم سيجدون كلما عملوه مكتوباً في سجل أعمالهم محفوظاً ومثبتاً عليهم وإن كانوا هم قد نسوه لأن الله مطلع على كل شيء يشاهد أعمالهم ويسمع سرهم ونجواهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم . قال الطبري : أحصى الله ما عملوا فعده عليهم وأثبتته وحفظه ، ونسيه عاملوه . انتهى . وقال القرطبي : أحصاه الله عليهم في صحائف أعمالهم ونسوه هم حتى ذكرهم به في صحائفهم ليكون أبلغ في الحجة . انتهى .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعين البصيرة ، حتى تيقنت كما يتيقن الرائي بالبصر ، فجعل اليقين القلبي كالمشاهدة . ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يعلم كلما يحدث فيهما ، بل هو خالق العباد وما يعملون فقد علمه قبل أن يعملوه . ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ النجوى المحادثة سراً . والمعية هنا معية علم ومشاهدة وإحاطة وقدرة ، لا معية ذات ، فذاته سبحانه في العلو . قال الضحاك : هو الله على العرش وعلمه معهم .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِلَهِ وَالْعَدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حِيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُوا الصِّيرَ﴾ ﴿٨﴾ قال مجاهد : هم اليهود . وعن عائشة قالت : جاء ناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقلت : السام عليكم ، وفعل الله بكم وفعل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ( يا عائشة إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ ) فقلت : يا رسول الله ، ألسنت ترى ما يقولون ؟ فقال ( ألسنت ترى ما يقولون ، أقول : عليكم ) روياه في الصحيحين . وقال السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : كان بين يهود وبين النبي صلى الله عليه وسلم موادة فكانوا إذا مر بهم رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ الآية . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمرو رضي الله عنه أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سام عليك يريدون بذلك شتمه - ثم يقولون في



أنفسهم ﴿لَوْلَا يَعِدُنَا اللَّهُ يَمَّا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية . انتهى من الدر المنثور . ونقل عن بن عباس أنهم المنافقون وهو مُحْتَمَلٌ للتفسير الوارد في سياق الآيات بعدها .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْمِزُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى﴾ الاثم الكذب والعدوان الظلم ، والبر الطاعة ، والتقوى اجتناب المعصية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة .

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْءًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه ) قال قتادة : كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم ، فأنزل الله في ذلك القرآن ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ...﴾ وقال بن زيد : كان الرجل يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله الحاجة ليرى الناس أنه قد ناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنع ذلك من أحد . قال : والأرض يومئذٍ حرب على أهل هذا البلد ، وكان إبليس يأتي القوم فيقول لهم : إنما يتناجون في أمورٍ قد حضرت ، وجموع قد جمعت لكم ، وأشياء ، فقال الله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ...﴾ . انتهى . وقيل المراد : أحلام النوم التي يراها الإنسان في نومه فتحزنه فهي من نجوى الشيطان وهي وسوسته . ورجح الطبري الأول لأن الله جل وعلا قدم النهي عنها في الآية السابقة .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١) قال الطبري : تفسَّحوا : توسعوا من قولهم مكان فسيح إذا كان واسعاً . انتهى . وقد قيل أن المراد مجلس النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد . قال قتادة : كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضُفُوا بمجلسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض . انتهى . وقال بن زيد : هذا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الرجل يأتي فيقول : افسحوا لي رحمكم الله فيضن كل أحدٍ منهم بقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم الله بذلك ورأى أنه خير لهم . انتهى . وقيل المراد مجالس القتال وقد رواه الطبري عن بن عباس والضحاك ونقله السيوطي عن الحسن . والآية عامة في جميع المجالس ولا دليل على التخصيص بمجلسٍ دون آخر . وقوله ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي توسعوا يوسع الله عليكم . ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ أي ارتفعوا ، أي قوموا وتفرقوا عن المجلس ، وقيل هذا خاصٌ بمجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان الصحابة رضي الله عنهم يتناقلون عند الانصراف من مجلس رسول

الله صلى الله عليه وسلم ويرغب كل واحد منهم أن يكون هو آخر من يخرج من مجلس رسول الله محبةً واشتياًقاً للمكث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرُوا أن يرتفعوا ولا يتناقلوا لأن النبي صلى الله عليه وسلم يتضايق من ذلك وعنده حوائج آخر يريد قضاءها . وهذا قول بن زيد . وقيل المراد الحث على النهوض إلى الأعمال الصالحة عموماً . وهو قول بن عباس ومجاهد وقتادة . وقيل الحث على القيام للجهاد خاصة وهو قول الحسن ، وقال الضحاك : كان إذا نودي إلى للصلاة تثاقل رجال ، فأمرهم الله إذا نودي للصلاة أن يرتفعوا إليها يقوموا إليها . ورجح الطبري شمول الآية لكل ما ذكر .

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١) قال السيوطي : أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن ابن عباس قال : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : تفسير هذه الآية : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم . انتهى من الدر .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُوشِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢) قال ابن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس . ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها . ذكره القرطبي . وقال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتصدقوا ، فلم يباحه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قدم ديناراً فتصدق به ، ثم أنزلت الرخصة في ذلك . وقال علي رضي الله عنه : آية من كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم ، فكنت إذا جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تصدقت بدرهم ، فنسخت . قال القرطبي : وما روي عن علي رضي الله عنه ضعيف لأن الله تعالى قال ﴿ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشيء . والله أعلم . انتهى .

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُوشِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣) قال مجاهد : شق عليكم تقديم الصدقة . وقال الطبري : أصل الإشفاق في كلام العرب : الخوف والحذر ، ومعناه في هذا الموضع : أخشيتكم بتقديم الصدقة الفاقة والفقر . انتهى . وهذا نسخ لما سبق من تقديم الصدقة بين مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مراعاةً لهذه العلة وهي

المشقة بتقديم الصدقة لما كان عليه أكثر الصحابة من الفاقة والفقر ، فكان في ذلك تخفيفاً ورحمة . وقد اختلفوا في المدة بين الأمر بها ونسخها فقال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخت . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال ابن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نسخت وكذا قال قتادة . ذكره القرطبي.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾ هم المنافقون تَوَلَّوْا القوم الذين غضب الله عليهم وهم اليهود قاله قتادة وابن زيد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١١﴾ . سورة الحشر ثم قال تعالى ﴿ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يعني ليس المنافقون من المؤمنين ولا من أهل الكتاب ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾ ويجلفون بالله على أمرٍ وهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون . وقال السيوطي : أخرج أحمد والبخاري والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل حجرة من حججه وعنده نفرٌ من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه ( علام تشمتني أنت وأصحابك ) فقال : ذرني آتاك بهم . فانطلق فدعاهم فحلفوا واعتذروا فأنزل الله ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ ۖ وَاللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ عَلِيمٌ ۝١٥﴾ . وقيل أن المراد ما ذكره الله عنهم بقوله ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ سورة المنافقون يعني كاذبون في دعواهم بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ أعد الله هؤلاء المنافقين عذاباً شديداً بسبب سوء عملهم وهو غش المؤمنين والكذب عليهم وموالات أعداء الله من اليهود وغيرهم .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١٦﴾ لم يكن إيمانهم حقيقياً وإنما كان وقايةً وستراً يستترون به خوفاً من المؤمنين أن يقيموا فيهم سبيل الله وهي الطريقة التي أمر الله بها في الكافرين وهي القتل أو الجزية ، فصدوا المؤمنين عن أن يقيموا فيهم سبيل الله في الكافرين بتظاهرهم بالإيمان ، ولكن ذلك لن يصد عنهم عذاب الله حيث أعد الله لهم عذاباً مذلاً لهم . وهذا هو الذي ذكره الطبري في معنى الآية ، ويمكن أن يكون الصد عن سبيل الله وقع من المنافقين على المؤمنين وهذا مشاهدٌ ملموس فكم

أوقعوا الناس في الفتن والشبهات والشهوات والانحلال باسم الدين وهو منهم براء . ويقولون إنما نحن نحارب التطرف والتشدد والتزمت ، وندعوا إلى الوسطية والاعتدال . ثم جعلوا يملون على الناس مناهج الدول المنحلة أو الكافرة على أنها هي الوسطية والاعتدال . ويظهرون خلال ذلك بمظهر المؤمنين الغيور على الدين وهم منافقون كاذبون في دعواهم الإيمان ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يصدوا عن سبيل الله ولا يفتن لهم المؤمنون ويظنون أنهم صادقون ناصحون ، لكن الله يطلع على الضمائر فلن يستتروا عنه بدعواهم الإيمان ولن يترك لهم صدهم عن سبيله بل سيعذبهم بالعذاب المذل لهم .

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٧) ﴿ ولن تنفعهم عند الله أموالهم فيفتدوا بها من عذاب الله ، ولا أولادهم فينصرونهم من الله ، بل هم من أهل النار يكتثون فيها أبداً بلا نهاية .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُم هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (١٨) ﴿ يوم يبعث الله المنافقين يوم القيامة من قبورهم للحساب فيحلفون لله كذباً أنهم مؤمنون كما كانوا يحلفون للمؤمنين في الدنيا كذباً ويحسبون أن ذلك سينفعهم عند الله لكن الله مطلع على قلوبهم وأعمالهم ويعلم أنهم كاذبون .

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٩) ﴿ الاستحواذ على الشيء يدل على الاستيلاء عليه والإحاطة به وغلبته ويدل على الجمع والضم . قال ثعلب ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ : غلب على قلوبهم . انتهى . أي تسلط عليهم الشيطان فاستولى على قلوبهم وعقولهم وغلبهم وضمهم إلى حزبه . ﴿ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أي طاعته وعبادته ، والنسيان هنا بمعنى الترك لا بمعنى الزوال عن الشيء ، لأن ذلك مما لا يعاقب عليه العبد . ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ أي جنده وأوليائه وطائفته . ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢٠) ﴿ في الدنيا والآخرة .

قال السيوطي : أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ( ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية )

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ﴿ قال مجاهد : يشاقون الله ورسوله . وقال قتادة : يعادون الله ورسوله . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (٢٠) ﴿ أي مع أهل الذلة والصغار . ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُ ﴾ أَنَا وَرُسُلِي ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢١) ﴿ أي حكيم الله وقضى أن الغلبة له ولرسوله ، ذلك لأن الله هو صاحب القوة المطلقة والعزة

المطلقة . قال قتادة : كتب الله كتاباً وأمضاه . وقال الطبري : قضى الله وخطّ في أمّ الكتاب ، لأغلبن أنا ورسلي من حادّني وشاقني . انتهى .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ لا تجد يا محمد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر صدقاً من قلوبهم يحبون ويتولون ويكون في قلوبهم مودة لمن حاد الله ورسوله ولو كان هذا المحاد لله ورسوله هو أبوهم أو ابنهم أو أخوهم أو قبيلتهم ، بل يبغضونه ويعادونه ، لمعاداته ومشاقته لله ورسوله ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ فهؤلاء القوم يا محمد هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي جعل كقوله تعالى ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ من (١٥٦) سورة الأعراف أي سأجعلها لهم . وقيل كتب هنا بمعنى أثبت وهو قول الربيع بن أنس وقيل بمعنى خلق وقيل بمعنى جمع ومنه الكتيبة لمجموعة الفرسان .

وقوله ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي قواهم برحمته فهداهم ودلهم على الصراط المستقيم وثبتهم عليه . قال القرطبي : قال الحسن : أيدهم بنصرٍ منه . وقال الربيع بن أنس : بالقران وحججه . وقال ابن جريج : بنور وإيمان وبرهانٍ وهدى . وقيل : برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . انتهى .

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ هذا جزاءهم في الآخرة ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي جند الله وأوليأؤه ، وجند الله وأوليأؤه هم المفلحون . قال السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننهم وابن عساكر عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبو عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدرٍ وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية قال : وأخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أحب في الله ، وأبغض في الله ، وعادى في الله ، ووالى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ثم قرأ ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية... وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ) وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( اللهم لا تجعل لفاجرٍ عندي يداً ولا نعمة فيوده قلبي فإني

وجدت فيما أوحيت إلي ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية .  
انتهى من الدر .

من دروس سورة المجادلة :

أولاً / أن على المبتلى أن لا يئأس من الدعاء فإن الله يسمع شكواه كما سمع شكوى المجادلة وسيجيئه حين يحين الوقت المناسب للإجابة .

ثانياً / أن الظهار منكر وزور وهو جريمة في حق الزوجة ، فهو ليس بطلاقٍ فتفتك منه ، وليس ببقاءٍ على أصول البقاء وهو قضاء الوطر والمعاشرة في الفراش . فلذلك حرمه الله وأوجب فيه الكفارة المغلظة .

ثالثاً / أن من حاد الله ورسوله بمحاربة دينه فإن مصيره الذلة والصغار والخزي في الدنيا والآخرة .

رابعاً / أن أعمال العباد محصاة عليهم في صحائف أعمالهم ولو نسوها فهي مكتوبة عليهم .

خامساً / أن يحذر المتناجون من الوقوع فيما يغضب الله فإنه وإن لم يسمعهم الناس فإن الله جل وعلا يسمعهم وهو معهم بعلمه وإحاطته وقدرته يسمع كلامهم ويرى مكانهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم .

سادساً / فضل أهل العلم وأن الله رفعهم على سائر المؤمنين درجات عنده .

سابعاً / الأمر بحسن التعامل مع الجلوساء بأن يفسح لهم حين يؤمر بالإفساح وينشز حين يؤمر بالنشوز .

ثامناً / تحريم موالاة الكافرين ومودتهم وأن ذلك موجب لسخط الله .

## سورة الحشر مدنية وآياتها (٢٤)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة الحشر

عن سعيد بن جبیر أنه سأل بن عباسٍ عن سورة الحشر فقال : نزلت في بني النضير . متفق عليه وروى الطبري بسنده عن يزيد بن رومان قال : نزلت في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله عز وجل به من نعمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم . انتهى وكان سبب ذلك نقضهم للعهد مع النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ومعاونتهم لقريش يوم أحد . قال القرطبي : كان خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم في ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة ، وتحصنوا منه في الحصون ، وأمر بقطع النخل وإحراقها ، وحينئذ نزل تحريم الخمر ، ودس عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين إلى بني النضير : إنا معكم ، وإن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم فاغتروا بذلك ، فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم . انتهى .

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ قال الطبري رحمه الله : صلى الله وسجد له . ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خلقه . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو العزيز في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيتهم إياه ، الحكيم في تديره إياهم . انتهى . والتسبيح يطلق على الذكر المعروف وهو قول سبحان الله أي أنزه الله عن النقائص . ويطلق على الصلاة كما قال بن عمر : لو كنت مسبحاً لأتممت . أي لو كنت مصلياً نفلًا في السفر لأتممت الصلاة ولم أقصرها . يعني أن الفريضة أولى فلما قصرت في السفر دلل على انتفاء النفل من باب أولى . ومراده السنن الرواتب وأما النفل المطلق فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنفل في السفر على ظهر الراحلة أنى توجهت به . وقد يستدل به على مشروعية إقامة السنن الرواتب في السفر لأنها أولى من النفل المطلق والعلم عند الله .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة وابن زيد والزهري : هم بنو النضير . وأول الحشر الشام وذلك أن الله جل وعلا يبعث ناراً تخرج من قعر عدن في آخر الزمان فتسوق الناس وتحشرهم إلى الشام كما ثبت في الأحاديث الصحاح فذلك الحشر الأول في الدنيا والحشر الثاني يوم القيامة . وقيل أن بعضهم خرجوا إلى خيبر ثم أجلاهم عمر مع أهل خيبر إلى الشام . وهذا من إعجاز القرآن أن يخبر عن أمرٍ مستقبلي وأن الله قد قدر عليهم جميعاً الجلاء إلى الشام

وقال ابن العربي : للحشر أولٌ ووسطٌ وآخر ، فالأول إجلاء بني النضير ، والأوسط إجلاء خيبر ، والآخر حشر يوم القيامة . ذكره القرطبي . ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ ما ظن المؤمنون أن يخرج اليهود بهذه السهولة ، وظن اليهود أن حصونهم تمنعهم من أمر الله إذا جاء ﴿ فَأَنْذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ جاءهم الله بأمرٍ لم يكن في حسابهم أنه يصيبهم ، وهو الرعب والخوف الشديد الذي قذفه الله في قلوبهم لما نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فتصالحوا معه على الجلاء من المدينة وأن يخلوا له دورهم وأموالهم إلا ما أقلت الإبل من الأموال غير السلاح على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذرياتهم ، فأجابهم . ﴿ يُخْرِجُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلَى الْأَبْصَارِ ۝ ٢ ﴾ فصاروا يخرجون بيوتهم بأيديهم فيقتلعون الأبواب والأعمدة وما يقدر على حمله من أخشاب البيت وأثاثه . قال قتادة : جعلوا يخرجونها من أجوافها ، وجعل المؤمنون يخرجونها من ظاهرها . وروى الطبري بسنده عن بن عباس والضحاك أنهم كانوا يهدمون بيوتهم لينبؤا ما هدمه المسلمون من حصونهم . يعني حتى خربت بيوتهم وحصونهم .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ٣ ﴾ ولو لم يجلوا من المدينة بأمر الله القدري والشرعي لعاجلهم الله بالعذاب في الدنيا بالقتل والسي ولكن الله ادخر لهم العذاب في الآخرة في نار جهنم . والفرق بين الجلاء والإخراج كما نقله القرطبي عن الماوردي من وجهين :

أحدهما / أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

الثاني / أن الجلاء لا يكون إلا للجماعة ، والإخراج يكون للواحد وللجماعة .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وسبب هذا العذاب في الآخرة والجلاء في الدنيا أنهم شاقوا الله ورسوله أي عادوا الله ورسوله فالشقاق المعادة كما قال شعيب عليه السلام ﴿ وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ من (٨٩) سورة هود أي معاداتي . وذلك أنهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم وعاونوا قريشاً يوم أحدٍ على المسلمين . ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ ﴾ ومن يعادي الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ٤ ﴾ لأعدائه

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ۝ ٥ ﴾ عن بن عباس أنها لونٌ من النخل ، وقال الثوري هي كرام النخل ، وعن جعفر بن محمد هي العجوة ، وقال الفراء : كل شيء من النخيل سوى العجوة فهو اللين . وهو قول بن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة وقاتادة والزهري ومالك ويزيد بن رومان ورجحه بن العربي . وقال أبو عبيدة والبخاري هي النخلة ما لم تكن عجوةً أو برنية . وعن



بن عباس ومجاهد والحسن وعمرو بن ميمون : هي النخلة . ولم يستثنوا منها شيئاً . وقال بن زيد : هي النخلة عجوة كانت أو غيرها . وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ .

والمعنى : ما قطعتم من نخلهم أو تركتم فكل ذلك وقع بإذن الله وهو عقوبة من الله وإهانة وإذلالاً للفاسقين الذين خرجوا عن طاعة الله وهم اليهود . وقوله ﴿فِيَاذَنَ اللَّهُ﴾ يحتمل أمرين : الأول : أن يكون المراد إذن الله الكوني القدري . والثاني : أن يكون إذن الله الشرعي وذلك أنه لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم قال اليهود للمسلمين هل جئتم بالإصلاح في الأرض أم بالفساد ؟ فتخرج المسلمون أن يكون ذلك من الإفساد في الأرض فأخبرهم الله جل وعلا أن ذلك وقع بأمر الله وإذنه وأنه ليس من الفساد في الأرض ولكنه إذلالاً وإهانة لأعداء الله .

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) أصل الفية الرجوع قال تعالى ﴿وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَنَّبَهُمَا عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ فِئَةٌ مِنْهُمَا فَأُصِّلَتْ لَهُمَا الشَّجَرَةُ الْمُقَرَّبَةَ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَمُوا أَنْ لَنْ يُبَغِيَ إِيَّاهُمَا أَبَدًا﴾ (١) سورة الحجرات أي حتى ترجع إلى أمر الله . ويقال فاء الظل إذا رجع إلى جهة المشرق . والفيه في الشرع : ما أخذ من أموال الكفار بلا قتال كالجزية والخراج وما تركوه فزعا قبل القتال وكذلك مال من لا وارث له .

ومعنى الآية وما رجع الله به على رسوله من أموال بني النضير فما أعملتم فيه السير على الخيل ولا الركاب وهي الإبل ، وأصل الوجيف الاضطراب كما قال تعالى ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) سورة النازعات أي شديدة الاضطراب يعني من الخوف والفرع ، ويطلق على نوع من سير الإبل والخيل سريع يعني كأنها تضطرب فيه من سرعتها ، قال بن منظور : الْوَجْفُ سُرْعَةُ السَّيْرِ ، وَجَفَ الْبَعِيرُ وَالْفَرَسُ يَجْفُ وَجْفًا وَوَجِيفًا أَسْرَعَ وَالْوَجِيفُ دُونَ التَّقْرِيبِ مِنَ السَّيْرِ الْجَوْهَرِيُّ الْوَجِيفُ ضَرْبٌ مِنْ سَيْرِ الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ وَقَدْ وَجَفَ الْبَعِيرُ يَجْفُ وَجْفًا وَوَجِيفًا وَأَوْجَفَ دَابَّتُهُ إِذَا حَثَّتْهُ . انتهى . أي لم يكن عليكم فيه كلفة بحمل العتاد والمؤونة . وقال بن كثير : أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة . انتهى . قال أبو مالك : لم يسيروا إليهم على خيل ولا ركاب إنما كانوا في ناحية المدينة . وقال مجاهد : يذكرهم ربهم أنه نصرهم وكفاهم بغير كراع ولا عدة .

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) كان تسليط الله رسوله عليهم بالرعب الذي قذفه في قلوبهم قال صلى الله عليه وسلم ( نصرت بالرعب مسيرة شهر )

وقد جعل الله فيء بني النضير لرسول الله خاصة فعن عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِحَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهَا مِنْهَا نَفَقَةً سَنَتِهِ ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكَرَاعِ عِدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ . رواه البخاري

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧)

أي ما رجع الله به على رسوله من مال أهل القرى من غير قتال كالخراج والجزية فهو لله يعني لإعداد العدة للجهاد في سبيل الله وكلما فيه نصرة دين الله . وللرسول ليتفرغ للرسالة ، ولذي القربى قرابة رسول الله ليتفرغوا لحمايته ونصرته ، ولأنهم قد حرّموا الزكاة والصدقة فعوضهم الله بالفيء ، واليتامى جمع يتيم وهو من فقد الوالد ، والمساكين جمع مسكين وهو من لا يجد كفايته ، وابن السبيل وهو المسافر المنقطع . قال قتادة : كان الفيء بين هؤلاء فنسختها الآية التي في الأنفال فقال ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ۚ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ من (٤١) سورة الأنفال فنسخت هذه الآية ما كان قبلها في سورة الحشر فجعل الخمس لمن كان له الفيء ، وصار ما بقي من الغنيمة لسائر الناس لمن قاتل عليها . انتهى . قال بن كثير : وهذا الذي قاله بعيد ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر ، هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك نزلت في أموال الفيء ، وهذه في المغنم . ومن يجعل أمر المغنم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام . انتهى .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ للسلف في هذه الآية قولان :

الأول / أن المراد الفيء والمال . قال الحسن : يؤتيهم الغنائم ويمنعهم الغلول .

الثاني / أنها الأوامر والنواهي . قال بن جريج : ما أتاكم الرسول من طاعتي وأمرى فخذوه ، وما نهاكم عنه من معصيتي فانتهوا . وعن علقمة عن عبد الله قال لعن الله الواثقات والمستوثقات والنائمات

وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ. قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَتُكَ لَعْنَتِ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحِي الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ . فَقَالَ لَئِنْ كُنْتُ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا تَجِدُكَ إِلَّا خَشَعَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِن دُونِهِ وَمَا تَجِدُكَ إِلَّا خَشَعَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِن دُونِهِ وَمَا تَجِدُكَ إِلَّا خَشَعَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِن دُونِهِ ﴾ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ فَلِإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الْآنَ. قَالَ أَذْهَبِي فَأَنْظُرِي . قَالَ فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا. فَقَالَ أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تُجَامِعْهَا . متفق عليه وقال السيوطي : أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أُمُّ يَقْلُ اللَّهُ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا تَجِدُكَ إِلَّا خَشَعَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِن دُونِهِ ﴾ قالوا : بلى قال : أُمُّ يَقْلُ اللَّهُ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ من (٣٦) سورة الأحزاب الآية قال : فإني أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت . انتهى من الدرر وحيث لا تعارض فتحمل الآية على كلا المعنيين فإن من المقرر في قواعد التفسير أن الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها إذا أمكن الجمع ولا تعارض بين هذه المعاني .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بفعل أمره واجتناب نهيهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧) لمن خالف أمره .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) أي الفياء يكون لفقراء المهاجرين الذين أخرجهم الكفار من ديارهم وسلبوا أموالهم ، ثم امتدحهم الله بالإخلاص وأنهم ما هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم إلا ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة لله ورسوله قال قتادة : هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كان فيه من شدة حتى لقد ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وإن كان الرجل ليتخذ الحفر في الشتاء ما له دثار غيرها . انتهى

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجَبُونَ مِّنْ هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) أي الأنصار الذين استوطنوا المدينة وآمنوا قبل مجيء المهاجرين إليهم . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَوْصِي الْخَلِيفَةُ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ هُمْ حَقَّهُمْ ، وَأَوْصِي الْخَلِيفَةُ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ

أَنَّ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَعْفُو عَنْ مُسِيئِهِمْ. رواه البخاري. قال قتادة : هم هذا الحي من الأنصار أسلموا في ديارهم وأبنتوا المساجد قبل قدوم النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بستين وأحسن الله عليهم الثناء في ذلك .

قال الحسن : الخصاصة الفاقة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال أتى رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسولَ الله أصابني الجُهدُ فأرسلَ إلى نِسائي فلم يجدَ عندهنَّ شيئاً ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ألا رجلٌ يُصَيِّفُ هذه اللَّيْلَةَ يَرْحِمُهُ اللهُ فقام رجلٌ من الأنصارِ فقال أنا يا رسولَ الله فذهبَ إلى أهله فقال لامرأته : صَيِّفِي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : لا تَدَّخِرِي شيئاً . قالت : والله ما عندي إلا قُوتُ الصَّبِيَةِ قال فإذا أَرَادَ الصَّبِيَةُ العِشاءَ فنَوِّمِيهم وتعالِي فاطْفِي السِّراجَ ونطوي بُطُوننا اللَّيْلَةَ ففعلتُ ثم غدا الرَّجُلُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد عَجِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أو ضحك من فلانٍ وفُلانة فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ رواه البخاري .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠) الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار أي جاءوا بعد الصحابة فأسلموا أو ولدوا في الإسلام إلى آخر الدهر قال عمر : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا له في هذا المال حق . وروى بن جرير وعبد الرزاق بسنديهما عن مالك بن أنس بن الحَدَّثَانِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ لَهُوْلَاءِ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ لَهُوْلَاءِ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : اسْتَوْعَبْتَ هَذِهِ الْآيَةُ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، فَلَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا لَهُ فِيهَا حَقٌّ ، ثُمَّ قَالَ : لَكُنْ عِشْتُ لِيَأْتِيَنَّ الرَّاعِي وَهُوَ بِسَرِّهِ حَمِيرٌ نَصِيْبُهُ ، لَمْ يَعْرِفْ فِيهَا جَبِيْنُهُ . انتهى . إلا أن الله اشترط أن يشنوا على الصحابة ويدعون لهم بالمغفرة ولا يكون في قلوبهم غلاً عليهم ولذا قال بعض أهل العلم ليس للرافضة نصيب في الفياء .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ أَلَدَبَرَةً لَا يَصُرُونَ ﴾ (١٢) روى الطبري بسنده عن يزيد بن

رومان أن رهطاً من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعه ومالك ابنا نوفل وسويد وداعس ، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم ، وإن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا لذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نزل بهم . انتهى .

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾ قيل هي في المنافقين وهو قول مقاتل وقيل المراد اليهود من بني النضير وهو قول الطبري وسياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها يدل على الفريقين ، وذلك من خور قلوبهم وجبنهم وكفرهم بالله وعدم إيمانهم به على الحقيقة . ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ قال الطبري : لَا يَفْقَهُونَ قَدَرَ عَظَمَةِ اللَّهِ ، فَهُمْ لِذَلِكَ يَسْتَحِفُّونَ بِمَعَاصِيهِ ، وَلَا يَرْهَبُونَ عِقَابَهُ قَدَرُ رَهْبَتِهِمْ مِنْكُمْ . انتهى .

﴿لَا يُقْنِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي مجتمعين يعني لا يبرزون كما يبرز الشجعان للقتال ولا يقدرّون على قتالكم في البراز والصحراء ككتلة واحدة لكن ربما برز منهم شخص أو أكثر فبارز كما كان من مرحب اليهودي الذي بارزه علي رضي الله عنه في خيبر وقتله .

﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ قيل بالخنادق والدروب وهو قول الألوسي وابن حيان والرازي والزمخشري وقيل بالبنائيات وهو قول الجزائري وقيل بالأسوار . قال الطاهر بن عاشور ﴿مُحَصَّنَةٍ﴾ ممنوعة ممن يريد أخذها بأسوارٍ أو خنادق . انتهى . قال أهل اللغة : أصل الاحصان المنع يقال حصنت المرأة فهي حاصن وحصان وأحصنت فرجها ونفسها فهي محصنة اذا منعت نفسها من الفجور ، وحصنت الشيء وأحصنته اذا منعته ومدينة حصينه أي ممنوعه ، ودرع حصينه لا ينكس فيها السلاح . انتهى . فدل على أن التحصين يكون بالأمر التي ذكرها المفسرون وربما بغيرها مما يمنع من دخولها .

﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ جمع جدار وهو الحائط . فهم إن لم يجدوا الحصون المنيعة بالأسوار الرفيعة والبنائيات والخنادق والدروب ونحوها فلا أقل من أن يتقوكم بالجدر ليجعلوا بينهم وبينكم حائلاً يتقوكم به .

قال الطبري : وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَاءِ الْكُوفَةِ وَالْمَدِينَةِ ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ عَلَى الْجَمَاعِ بِمَعْنَى الْحَيْطَانِ . وَقَرَأَهُ بَعْضُ قُرَاءِ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ ( مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ ) عَلَى التَّوْحِيدِ بِمَعْنَى الْحَائِطِ وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحَتَانِ الْمَعْنَى فَبَأْتِيَهُمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ . انتهى .

﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي المنافقين واليهود قاله مقاتل والطبري وهو قول مجاهد وسفيان وهذا يدل على شمول الآية السابقة على الفريقين ، وعن مجاهد أنهم المشركون وأهل الكتاب وسياق الآيات يدل على الأول . فهم شديدي العداوة فيما بينهم ولو ظننت أنهم متفقين مؤتلفين فهم في الحقيقة متفرقين متعادين . قال قتادة: نَجِدُ أَهْلَ الْبَاطِلِ مُخْتَلِفَةً شَهَادَتُهُمْ مُخْتَلِفَةً أَهْوَاؤُهُمْ مُخْتَلِفَةً أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي عَدَاوَةِ أَهْلِ الْحَقِّ . انتهى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤) أي ليست لهم عقول يدركون بها مصالحهم في دينهم ودنياهم . قال الطبري: لَا يَعْقِلُونَ مَا فِيهِ الْخَطُ لَهُمْ مِمَّا فِيهِ عَلَيْهِمُ الْبَحْسُ وَالنَّقْصُ . انتهى

وقال بعض المفسرين قوله تعالى ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يدل على أن خوفهم من المؤمنين لم يكن بسبب جنٍ ونحوه ولكن بسبب الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم . قال البيضاوي : أي وليس ذلك لضعفهم وجبنهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً بل لقذف الله الرعب في قلوبهم ، ولأن الشجاع يجب والعزير يذل إذا حارب الله ورسوله . انتهى .

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٥) قيل المراد بنو قينقاع وقيل المراد المشركون يوم بدرٍ ورجح الطبري شمول ذلك لأن وقعة بدرٍ وإجلاء بني قينقاع كان قبل إجلاء بني النضير بوقتٍ قريب وكلاً ذاق وبَالَ أَمْرِهِ ، أي عقوبة كفره ومعاداته لله ورسوله .

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ مثل هؤلاء المنافقين في مواعدتهم لأهل الكتاب بالنصرة أو الخروج معهم مثل مواعدة الشيطان حين قال للإنسان اكفر أي جنس الانسان قال مجاهد : يعني الناس عامة . يعني غرهم باتباع الشهوات ونصرة جنوده من الكفرة . ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) يعني فلماً أطاعه من أطاعه من الناس تبرأ منهم . ولعل المراد تبرؤه منهم في الدار الآخرة كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧) سورة إبراهيم وأما القصة المذكورة في كتب التفسير أنها نزلت في راهبٍ فجر بامرأة فلما حملت قتلها ودفنها وقال إنها ماتت فجاء الشيطان إلى أخوتها فقال إن الراهب قد فجر بأختكم وقتلها ودفنها في المكان الفلاني فلما حفروه وجدوه كما قال فاستعدوا عليه الحاكم فجاءه الشيطان فقال أنا صاحبك الذي

زينت لك الزنا والقتل فإن اطعني انجيتك مما أنت فيه فأمره بالكفر والسجود له فأطاعه وحكم عليه الحاكم بالقتل فتبرأ منه الشيطان ، فهذه القصة من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر عليها الكذب لأنها تخالف سنة الله في حفظ أوليائه وأهل طاعته من الشيطان . كما قال تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَئِيسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ من سورة الإسراء (٦٥)

﴿ فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٧) أي الشيطان والكافر .  
 ﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي ما قدمت ليوم القيامة فإنه كالغد في قربه  
 ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٨) من أعمالٍ صالحةٍ أو سيئةٍ ، فيجازيكم عليها .  
 ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٩) النسيان هنا بمعنى الترك أي تركوا عبادة الله وطاعته . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حظ أنفسهم .

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) الفائزون بالنعيم المقيم الناجون من عذاب الجحيم ، وأما أصحاب النار فقد خسروا النعيم وباعوا بالجحيم .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن حال الجبال لو أنزل عليها هذا القرآن وكلفت بحمله أنها على صلابتها وقوة تحملها تتخشع أي تتذلل وتتصدع من خشية الله ، خشية ألا تقوم بحقه ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ وإنما ضرب الله هذا المثل للناس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١) في القرآن في مواعظه وزواجره وحكمه فينقادوا لمن أنزله وهو الله جل في علاه ويخشعوا له تذلاً وتعظيماً ، ذلك ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحقٍ سواه ﴿ عَلِيمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ يعلم ما كان غائباً عن الأعين وما كان مشاهداً لا يخفى عليه شيء .  
 ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ ﴾ ذو الرحمة الواسعة الذي وسعت رحمته الخلائق كلها حتى الكفار رحمهم فلم يعجل عليهم العقوبة . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) ذو الرحمة الواصلة لعباده المؤمنين . هذا مما قيل في الفرق بين اسم الله الرحمن واسمه الرحيم أن الرحمن أي ذو الرحمة العامة بالخلائق كلها ، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين . لكن يشكل على هذا القول قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ من سورة البقرة وقيل الرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل ولذلك لا يذكر الله تعالى اسمه الرحمن إلا في ذكر ذاته العلية كقوله ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ (٢٦) سورة مريم وقوله ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنَ

كُلِّ شَيْعَةٍ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ سورة مريم وقوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ سورة طه ونحو ذلك من الآيات ، بينما يذكر اسمه الرحيم في رحمته المتعدية إلى الخلائق كقوله ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٧﴾ سورة التوبة وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ من (١٤٣) سورة البقرة ومنها أن اسم الرحمن من الأسماء الخاصة بالله جل وعلا والتي لا يجوز لأحد أن يتسمى بها ، بينما يجوز أن يقال للإنسان رحيم كقوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ سورة التوبة

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ صاحب الملك المطلق ، مالك الملوك وما ملكوه .

﴿الْقُدُّوسُ﴾ المنزه عن الشرور والنقائص والأنداد ومشابهة الخلق .

﴿السَّلَامُ﴾ أي السالم من كل نقصٍ وعيب ، المسلم عباده من كل آفةٍ وسوء .

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ له معنيان : التصديق والأمان ، فالله جل وعلا هو الصادق في وعده وقوله كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ من (٨٧) سورة النساء وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ من (١٢٢) سورة النساء وهو جل وعلا المصدق لرسله وأوليائه بالبينات والمؤيدات . وهو جل وعلا المؤمن لأوليائه من الخوف والفرع ، الذي قد أمن خلقه منه أن يظلمهم .

﴿الْمُهَيِّمُ﴾ أي الشهيد الرقيب على خلقه بما يكون منهم من قولٍ وعمل ، الحافظ القائم على عباده بمصالحهم . وهو معنى قول بن عباسٍ والضحاك : المهيمن الأمين . وعن بن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادة ومقاتل : المهيمن الشهيد . وعن بن زيد ومقاتل : المصدق . وقد وصف الله كتابه بأنه مهيمنٌ على الكتب السابقة ، لأنه قد أودع فيه ما كان فيها من علمٍ فحفظه وصدقه وشهد به ، وقام مقامها فنُسِحتْ به .

﴿الْعَزِيزُ﴾ ذكر العلماء ثلاثة معانٍ من معاني اسم الله العزيز وهي :

أولاً / عزة القوة فهو القوي وما سواه ضعيف .

ثانياً / عزة الامتناع فلن يبلغ العباد ضره فيضره ولا نفعه فينفعوه .



ثالثاً / عزة القهر والغلبة لكل شيء فلا يستطيع أحد أن ينازعه في سلطانه ولا أن يفعل في سلطانه شيء إلا بإذنه وعلمه ، وما يفعله العبد من الطاعات فقد أذن الله له في ذلك قدراً وشرعاً ، وما يفعله من المعاصي فقد أذن له قدراً وحرمة عليه شرعاً ، وإنما يحاسب العبد على الإذن الشرعي لا القدري .

﴿الْجَبَّارُ﴾ في اللغة له ثلاثة معان : الأول / الإجبار وهو إكراه الغير على قول أو فعل ما لا يريد .

والثاني / الجبر الذي هو سد الحوائج كجبر الكسير بعلاج كسره وجبر الفقير بمساعدته للتخلص من فقره ويقال : جبر خاطري أي سد ما حصل فيه من نقص بسبب أمرٍ ما .

الثالث / القوة والعظمة والعلو يقال : رجلٌ جبار إذا كان طويلاً قوياً عظيماً .

والله جل وعلا هو الجبار أي صاحب القوة والعظمة والعلو ، الذي فهر الجبابرة وغلبهم بقوته وعظمته . وهو جل وعلا الجبار الذي سد حوائج الخليقة فتكفل بأرزاقهم وأقواتهم ويسر لهم أسباب العيش وجبر كسيرهم وأغنى فقيرهم وأعطاهم سؤلهم وكل نعمة بهم فهي من عنده جل وعلا . قال قتادة : جبر خلقه على ما يشاء من أمره .

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ صاحب العظمة والعلو والسلطان المطلق لذا كان هذا الاسم خاصاً بالله يحرم التسمي به والاتصاف بمعناه على من سواه ، فهو مدحٌ في حق الله ، ذمٌ في حق من سواه .

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله عن الشركاء .

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ أي الموجد للأشياء من العدم .

﴿الْبَارِئُ﴾ قيل أي الموجد من العدم كمعنى الخالق وقيل : هو الخالق خلقاً بعد خلق في أطوار كالإنسان من نطفة ثم من علقه... الخ وقيل : هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت أي من الاختلاف والضعف بل خلقه في غاية الدقة والإحكام . وقيل : معناه أن الله برئ من كل نقصٍ وعيبٍ في صفاته وأفعاله . والصحيح أنه يشمل ذلك كله فالباري هو الموجد والمنشئ من العدم ، وهو الذي يخلق شيئاً من شيء كما خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ، وهو الذي يخلق الخلق بريئاً من العيب والتفاوت ، كما أنه لا يلحقه نقصٌ ولا عيب في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله .

﴿الْمُصَوِّرُ﴾ التصوير يأتي بمعنى التخطيط والتشكيل ، والله جل وعلا هو المصور الذي صور جميع المخلوقات على هيئات مختلفة وأشكالٍ متباينة ، فالمصور هو الذي يعطي المخلوق سماتٍ تميزه عن غيره كما قال تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ من آية (٦٤) سورة غافر .

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فعلى من الحسن وهي صيغة مبالغة تدل على كمال حسنها فهي حسنة في ألفاظها حسنة في معانيها حسنة في القلوب والأسماع .

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يمجده وينزهه عن النقائص ويصلي له كل من في السماوات والأرض سوى الكافر .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ذو القوة والغلبة والرفعة والامتناع .

﴿الْحَكِيمُ﴾ (٢٤) الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ، فلا يأمر ولا ينهى ولا يخلق عبثاً إنما ذلك صادرٌ عن حكمةٍ بالغة .

من دروس سورة الحشر

أولاً / في قوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ من وجوه الاعتبار في حال بني النضير أن الحصون المنيعة والعدد والعتاد لا تمنع من الله حين نزل بأسه بهم ، ومنها تخريبهم دورهم وأموالهم بأيديهم لما لم يطيعوا الله وخالفوا أمره وعادوا رسوله فعاقبهم الله بأيديهم وأيدي المؤمنين . ومنها أن أهل الباطل مهما أرادوا الاجتماع في وجه الحق فإن الله يفرقهم ويخذلهم كما كان من مواعدة المنافقين لليهود بالنصرة فلما وقع أمر الله خذلهم ولم ينصروهم .

ثانياً / أن هناك فرقاً بين الفبيء والغنيمة فالفبيء وهو ما أخذه المسلمون من أموال الكفار بلا قتال كالجزية والخراج وما تركوه فزعاً فهذا ليس للمقاتلين فيه نصيب وإنما هو للأصناف الخمسة التي ذكرها تعالى في هذه السورة في قوله تعالى ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فليس للغني فيه نصيب كما قال تعالى ﴿كَئِنْ لَا يَكُونُ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ وأما الغنيمة وهي ما أخذه المسلمون من أموال الكفار المحاربين بالقتال ، فإنها تخمس ويعطى الخمس لمن له الفبيء والبقية للمقاتلين كما قال تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ من (٤١) سورة الأنفال

ثالثاً / أن الغدر والخيانة عادة متأصلة في اليهود فينبغي الحذر منهم وعدم الوثوق بعهودهم ومواثيقهم .

رابعاً / أن من حاد الله ورسوله جزاءه الحزى والذلة والهوان والعقوبة في الدنيا والآخرة ولن تنفعه عدده وعتاده وتحصيناته فسيأتيه الله بالعذاب من حيث لا يحتسب .

خامساً / جواز قطع الأشجار وحرق البساتين وهدم البيوت إذا كان في ذلك إذلالاً لأعداء الله وتنكيلاً بهم .

سادساً / فضل المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وأموالهم طلباً لرضى الله ونصرة لرسوله ودينه . كما قال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨)

سابعاً / فضل الأنصار وحسن أخلاقهم وسلامة صدورهم ومحبتهم لأولياء الله من المهاجرين وإيثارهم لهم على أنفسهم كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩)

ثامناً / فضل سلامة الصدر لأولياء الله ومنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ومحبتهم والثناء عليهم والدعاء لهم عملاً بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠)

تاسعاً / خبث المنافقين في كل زمان ومكان ومناصرتهم لأعداء الله . وحقيقتهم أنهم مثلهم في الكفر وإن تظاهروا بالإيمان ولذلك جعلهم الله إخواناً لهم فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾

عاشراً / فضل كتاب الله وعظمته حتى لو أنزل على الجبال لتخشعت وتصدعت من خشية الله ألا تقوم بحق كتابه فعلى الإنسان أن يتدبر كتاب ربه ويتفكر في آياته وعبره ليخشع قلبه ويلين لذكر الله كما قال

تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ من (١٦) سورة الحديد

## سورة الممتحنة مدنية وآياتها (١٣)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة الممتحنة

عن علي رضي الله عنه قال : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالرُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ فَقَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ فَإِنَّ بِهَا طَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَحُدُّوهُ مِنْهَا فَذَهَبْنَا تَعَادَى بِنَا حَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالطَّعِينَةِ فَقُلْنَا أخرجي الكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجَنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَمْنُ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هَذَا يَا حَاطِبُ ؟ قَالَ : لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مِنْ قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِمَكَّةَ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَصْطَنَعَ إِلَيْهِمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَقَالَ إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرِ فَقَالَ ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ قَالَ عَمْرُو وَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ رواه البخاري.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أنصاراً ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ قال السعدي أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها فإن المودة إذا حصلت تبتعتها النصره والموالاة ، فخرج العبد من الإيمان وصار من جملة أهل الكفران . انتهى . فنهى الله عباده عن موالاته الكافرين ومحبتهم .

وقيل المعنى : تلقون إليهم أخبار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب المودة التي بينكم وبينهم .

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا تلقون إليهم بالمودة وهذه حالهم أنهم قد كفروا بما هداكم الله إليه من الحق . ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ وكانوا قد قدموا لكم الإساءة بإخراج الرسول وإخراجكم من دياركم لا لشيء إلا لأنكم آمنتم بالله ربكم . فلا توالوهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ مخلصين لي في هجرتكم وجهادكم تبتغون مرضاتي . ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي بالنصيحة أي تخفون النصيحة للكفار عن المؤمنين . ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ وأنتم تعلمون أي

أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم . ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١ ﴾ أي موالاة الكافرين بعد تحذيري إياكم من موالاتهم فقد انحرف عن الطريق الصحيح .

﴿ إِنْ يَشْفِقْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾ إن يلقوكم ويصادفوكم ويظفروا بكم فسيظهرون لكم العداوة وستمند إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء كالضرب والتعذيب والقتل والسب ، ويتمنون أن لو رجعتكم إلى الكفر .

﴿ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ ﴾ إن توادوهم بسبب أنهم أرحامكم أي قرابتكم وأولادكم فلن ينفعوكم عند الله ، سيفصل الله يوم القيامة بينكم وبينهم فلن يكون المؤمن مع الكافر ، فالمؤمن في الجنة والكافر في النار ، والله ذو بَصَرٍ وبصيرة بما تعملون فيجازيكم بعملكم فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ، فلا توادوهم لأجل القرابة ، ثم ضرب لهم مثلاً يحتذى به وهو إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ومن معه من المؤمنين فإنهم تبرؤوا من قراباتهم لما لم يسلموا ويدينوا بدين الحق فقال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۝٤ ﴾ فتأسوا بهم وتبرءوا من أعداء الله مهما تكن القرابة بينكم وبينهم ، وتبرءوا من معبوداتهم من الأوثان ونحوها ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء في الدين حتى يرجعوا إلى الدين الصحيح ويفردوا الله بالتوحيد . ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۝٥ ﴾ أي لا تتأسوا به في ذلك فإنه يحرم الاستغفار للمشركين كما قال تعالى ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٣ ﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۝١١٤﴾ سورة التوبة وقوله ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۝٥ ﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عنك عذاب الله إن أراد أن يوقعه بك . ثم قال إبراهيم عليه السلام ومن معه ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝١١٤ ﴾ فوضنا أمورنا إليك واعتمدنا عليك ورجعنا إليك تائبين لأنه إليك المرجع في الدار الآخرة .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۝١١٥﴾ أنت العزيز الحكيم ۝٥﴾ قيل المعنى : لا تسلطهم علينا فيفتنونا وهو قول بن عباس ، وقال مقاتل : تقتر علينا بالرزق وتبسط لهم فنحتاج إليهم فيكون ذلك فتنة لنا . انتهى . وقيل المعنى : أي لا تجعلنا سبباً لفتنة الذين كفروا . قال البخاري : قال مجاهد : لا تُعَذِّبْنَا

بأيديهم فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا . انتهى . وقال قتادة : لا تُظهرهم علينا فيفتنوا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا لأنهم أولى بالحق منا .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ٦ ﴿ كرر المولى جل وعلا الحث على الاقتداء بهم لمن كان يرجو رضا الله وثوابه في الدار الآخرة ، ومن يتول فيرجع إلى موالاة الكفار بعد هذا التحذير فالله غني عنه وهو الخسران في الدنيا والآخرة ، والله هو المحمود بآلائه ونعمه وإحسانه على خلقه . فهم المحتاجون إليه وهو الغني عنهم .

﴿عَسَى اللَّهُ﴾ تأملوا من الله ﴿أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً﴾ بإسلامهم ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٧ ﴿ على أن يهديهم ويغفر لهم ويرحمهم . فهدى الله منهم خلقاً كثيراً كأبي سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم كثير وأصبحت بينهم وبين المؤمنين مودة بعد أن كانت بينهم العداوة . وقيل : كانت المودة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت تحت عبيد الله بن جحش ، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة . فأما زوجها فتتصر وسألها أن تتابعه على دينه فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها على النصرانية . فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي فخطبها ؛ فقال النجاشي لأصحابه : من أولاكم بها ؟ قالوا : خالد بن سعيد بن العاص . قال فزوجها من نبيكم . ففعل ، وأمهرها النجاشي من عنده أربعمئة دينار ، فلان أبو سفيان وخفت عداوته ثم أسلم بعد ذلك .

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ هذا هو الفرق بين المحاربين وغير المحاربين من الكفار فغير المحاربين كأهل العهد والذمة يجوز برهم يعني الإحسان إليهم كصلاتهم بالمال ولذلك جوز العلماء دفع الصدقة المطلقة إليهم ولا يجوز دفع الزكاة الواجبة إلا للمؤلفة قلوبهم منهم وهم الذين يرجى إسلامهم ، وقيل المؤلفة قلوبهم هم حديثي العهد بالإسلام ، وأما المحاربين فلا يعطون إلا السيف في رقابهم . ﴿وَتَقَسَّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ٨ ﴿ قال مقاتل : توفوا إليهم بعهدهم . وقال الزجاج : تعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد . وقيل المعنى : تعطوهم قسطاً من أموالكم لأن العدل مطلوب مع المحاربين ومع غير المحاربين . وقال قتادة وابن زيد ومقاتل أن هذه الآية منسوخة بآية القتال . والأكثر على أنها محكمة وأنها في النساء والأطفال والعجزة وأهل العهد والذمة كما في قصة أم أسماء . وعن مجاهد أنها في المؤمنين الذين لم يهاجروا . والصحيح ما ذكرنا لأن المؤمنين لا تنتفي ولايتهم بتركهم الهجرة .

﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي قاتلوكم بسبب الدين أي بسبب أنكم آمنتم بالله .  
﴿ وَأَخْرَجُكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ وطرادكم من دياركم لأجل دينكم . ﴿ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ أعانوا على  
إخراجكم بقول أو فعل . ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ أي ينهاكم أن تولوهم فتجعلوهم أولياء لكم تحبوهم وتناصروهم  
﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ١٠ ﴿ ظلموا أنفسهم بفعل ما نهى الله عنه .

قال القرطبي : وهذا كله معاتبة لحاطب ، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه  
وسلم وصدق إيمانه ، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محبٍ لحبيبه كما قال :

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقي العتاب . انتهى .

والآيات عامة لكل زمان ومكان وأشخاص ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى  
الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكْفُوهُنَّ إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمَسِّكُوا  
بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهَا أَنْفَقُوا ۚ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَكُمْ بَيْنَهُنَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ١٠ ﴿ عن عُرْوَةَ بِنُ  
الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ مَرْوَانَ وَالْمُسَوَّرَ بْنَ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُخْبِرَانِ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وسلم قَالَ : لَمَّا كَانَتْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ كَانَ فِيهَا اشْتَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وسلم أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا وَخَلَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَكَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ  
وَامْتَعْصُوا مِنْهُ وَأَبَى سُهَيْلُ إِلَّا ذَلِكَ فَكَاتَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم عَلَى ذَلِكَ فَرَدَّ يَوْمَئِذٍ أَبَا جَنْدَلٍ عَلَى  
أَبِيهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا وَجَاءَ الْمُؤْمِنَاتُ  
مُهَاجِرَاتٍ وَكَانَتْ أُمُّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِّنْ خَرَجٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم يَوْمَئِذٍ  
وَهِيَ عَاتِقٌ فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
فِيهِنَّ ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ  
لَهُنَّ ﴾ . قَالَ عُرْوَةُ فَأَخْبَرَنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَأَيُّهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ إِلَى ﴿ عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ  
بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم قَدْ بَايَعْتُكَ كَلَامًا يُكَلِّمُهَا بِهِ وَاللَّهُ مَا مَسَّتْ يَدُهُ  
يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ وَمَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ . رواه البخاري

وقال مقاتل : نزلت في سبيعة بنت الحارث الأسلمية في المودعة وكانت تحت صيفي بن الراهب من كفار مكة فجاء زوجها يطلبها ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ردها علينا فإن بيننا وبينك شرطاً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ( إنما كان الشرط في الرجال ، ولم يكن في النساء ) . فأنزل الله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ . انتهى

وقوله ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ أي اختبروا صدقهن وهل جئن مهاجراتٍ لله ورسوله حقاً أم نشوزاً وبغضاً لأزواجهن قال مجاهد : يقول : سلوهن ما جاء بهن ، فان كان بهن غضبٌ على أزواجهن أو غيره أو سخط ولم يؤمن فأرجعهن إلى أزواجهن . وإن جئن مؤمناتٍ بالله عز وجل ورسوله فأمسكوهن . انتهى . وقد قيل يطلب منهن الحلف على ذلك . وقوله ﴿ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ﴾ أي ردوا عليهم مهر زوجاتهم المهاجرات . وقوله ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ ﴾ أي تتزوجهن بالمهر . وقد اختلف أهل العلم في عدة المهاجرة فقال مالك والليث والأوزاعي وأبي يوسف ومحمد والشافعي تعتد المهاجرة عدة المطلقة ثلاث حيض وقال أبو حنيفة تستبرأ بحیضة لأنه فسخٌ وليس بطلاق واختاره بن تيمية وابن القيم وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَنْزِلَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ كَانُوا مُشْرِكِي أَهْلِ حَرْبٍ يُقَاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُ وَمُشْرِكِي أَهْلِ عَهْدٍ لَا يُقَاتِلُهُمْ وَلَا يُقَاتِلُونَهُ ، وَكَانَ إِذَا هَاجَرَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ لَمْ تُخْطَبْ حَتَّى تَحِيضَ وَتَطْهَرَ فَإِذَا طَهَّرَتْ حَلَّ لَهَا النِّكَاحُ فَإِنْ هَاجَرَ زَوْجُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْكِحَ رُدَّتْ إِلَيْهِ . انتهى قال بن حجر : قوله ( حتى تحيض وتطهر ) تمسك بظاهره الحنفية وأجاب الجمهور بأن المراد تحيض ثلاث حيض لأنها صارت بإسلامها وهجرتها من الحرائر بخلاف ما لو سبيت . انتهى . وقال بن بطال : إذا أسلمت المشركة وهاجرت إلى المسلمين ، فقد وقعت الفرقة بإسلامها بينها وبين زوجها الكافر عند جماعة الفقهاء ، ووجب استبرأؤها بثلاث حيض ، ثم بذلك تحل للأزواج ، هذا قول مالك والليث والأوزاعي وأبي يوسف ومحمد والشافعي . وقال أبو حنيفة : إذا خرجت الحربية إلينا مسلمة ولها زوج كافر في دار الحرب فقد وقعت الفرقة ولا عدة عليها ، وإنما عليها استبراء رحمها بحیضة ، واعتل بأن العدة إنما تكون في طلاق ، وإسلامها فسخ وليس بطلاق ، قالوا : وهذا تأويل حديث ابن عباس : أنه إذا هاجرت امرأة من أهل الحرب لم تخطب حتى تحيض وتطهر ، أن المراد بذلك الاستبراء ، وتأويل هذا عند مالك والليث ومن وافقهما ثلاث حيض ؛ لأنها قد حصلت بالهجرة من جملة الحرائر المسلمات ولا براءة لرحم حرة بأقل من ثلاث حيض . وأكثر العلماء على أن زوجها إن هاجر مسلماً قبل انقضاء عدتها أنه أحق بها . انتهى . ولا شك أن قول الحنفية أظهر وقول الجمهور أحوط . وقوله ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا ﴾



يَعْصِمُ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ أي الكافرات أي طلقوا الكافرات فطلق عمر رضي الله عنه امرأتان من نساءه كن كافرات وقوله ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي اطلبوا منهم مهر الكافرات التي طلقتموهن ، وليطلبوا هم مهر المهاجرات اللاتي لم تردوهن إليهم ، فهذا هو حكم الله الذي حكم به بينكم وبينهم وحكمه العدل . لأنه عليهم بما يصلح الناس ، حكيم يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها .

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ قال مجاهد : الذين ليس بينكم وبينهم عهد . انتهى . والظاهر أن الآية عامة وقد نزلت في كفار قريش وقد كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهدٌ على الصلح . لكن قد لا يرضى بعضهم بحكم الله الذي حكم به برد المهر للأزواج لأنهم كفارٌ قد لا يرضون بحكم الله فحينئذٍ يكون الحل للمسلم الذي ذهب زوجته إلى الكفار هو ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ قال مجاهد : أصبتم مغنماً وقال مقاتل : فإن غنمتم وأعقبكم الله مالاً . ﴿فَتَأْتُوا الذِّبْنَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ يعني : أعطوه من الغنيمة مثل الذي أنفق عليها من الصداق وهو المهر . ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ أي خافوا الله الذي أنتم مصدقون به موحدون له أن تعصوه في حكمه وأمره أو تكذبوا في قدر المهر لتأخذوا زيادةً على ما أنفقتم ونحو ذلك مما ينبغي فيه مراقبة الله جل وعلا والحذر منه .

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْزُقْنَ وَلَا يُنْفِقْنَ إِلَّا مَا يَنْفِقْنَ عَنْهُنَّ﴾ يَأْتِيَنَّ بِبَهْتَنٍ يَفْرِيْنَهُ. بَيْنَ أَيْدِيْنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ عن عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ عُرْوَةُ : قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قَدْ بَايَعْتُكَ) كَلَامًا ، وَلَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ مَا يُبَايَعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ . رواه البخاري . وَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْنَا ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ وَنَهَانَا عَنِ التَّيَاحَةِ فَقَبَضَتْ امْرَأَةٌ يَدَهَا فَقَالَتْ أَسْعَدْتَنِي فَلَأَنَّهُ أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا فَمَا قَالَ هَذَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَأَنْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا . رواه البخاري . وذكر المفسرون أن هند بنت عتبة قالت عندما بايعهن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهن قوله تعالى ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ قالت : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال

﴿وَلَا يَتَرَفَّنَ﴾ قالت : والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدري أكان ذلك حلالاً أم لا ؟ فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل . وفي صحيح البخاري أن هنداً قالت : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فَقَالَ ( حُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدُكَ بِالْمَعْرُوفِ ) ﴿وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾ قالت: وهل تزني الحرة . ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت : قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك بيدٍ كباراً . فضحك عمر حتى استغرق وفي لفظٍ حتى استلقى ، وكان بكرها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدرٍ مع المشركين . ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِمَا﴾ قالت : والله إن البهتان لأمرٍ قبيح ، ما تأمر إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت : ما جلسنا هنا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء . وعن عائشة أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ما كان مما على وجه الأرض أهل خباءٍ أحب إليَّ من أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباءٍ أحب إليَّ من أن يعزوا من أهل خبائك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأيضاً والذي نفس محمد بيده . وروى بن جرير بسنده عن أميمة بنت رقيقة التيمية قالت : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوةٍ من المسلمين ، فقلنا له : جئناك يا رسول الله نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بيهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروف ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطَقْتُمْ ) فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، فقلنا : بايعنا يا رسول الله ، فقال ( اذْهَبْنَ فَقَدْ بَايَعْتُنَّ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَنْ أَمَرْتُ كَقَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ) وما صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم منا أحداً . انتهى . وأما ما يذكره بعض أهل التفسير بأنه بايعهن وبينه وبين أيديهن ثوب أو أنه كلف عمر بمصافحتهن فكله لا دليل عليه ، والصحيح ما ذكرته أم المؤمنين عائشة في الصحيح أنه كان يبايعهن كلاماً بلا مصافحة . وقوله تعالى ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قيل : أي لا يئدن البنات ولا يسقطن الأجنة . واللفظ عام يشمل كل نوعٍ من أنواع القتل المتعمد . وإنما يفعله بعضهن كراهيةً للزوج أو من الفقر أو خوف العار إن كان من زنا ونحوه . وقوله ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِمَا﴾ قيل بين أيديهن النميمة وقيل القبلات والتحسس من غير الزوج ، وأرجلهن أي فروجهن أي لا يأتين بولدٍ من زنا فينسبهن إلى أزواجهن . وقيل : ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد الذي تلحقه بزوجها وليس منه لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها ، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها . وقوله ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قيل أي النياحة وتقدم حديث أم عطية وقولها : ونهانا عن النياحة . واللفظ يشمل الأوامر

والنواهي كلها أي يطعنك ولا يعصينك في المعروف وكل أمرٍ من الشارع فهو معروف وكل منهي عنه فهو منكر . قال بن كثير : يعني فيما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر . انتهى . وقال البغوي : أي في كل أمرٍ وافق طاعة الله .

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ هم اليهود ﴿ قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قد يسأل اليهود من رحمة الله كما يسأل المشركون من لقياء من مات منهم لأنهم لا يعتقدون بعثاً بعد الموت ، وقيل كما يسأل من مات منهم من رحمة الله حين عاين الآخرة وتبين لهم خبث أعمالهم وهو قول بن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي ومنصور واختاره ابن جرير . والأول قول بن عباس والحسن البصري وقتادة والضحاك .

من دروس سورة الممتحنة

أولاً / أن من أخبر الكفار بشيء من أسرار المؤمنين المؤثرة في القتال لغرض دنيوي واعتقاده سليم لم يكفر لكن هل يجوز قتله لهذا الفعل ؟ الراجح من أقوال العلماء أنه إذا تكرر منه ذلك يقتل حد الإفساد في الأرض ومحاربة الله ورسوله بنصرة الكفار . وقيل يرجع فيه إلى رأى الإمام بالقتل وعدمه بحسب مصلحة المسلمين . وهكذا الذمي ويعتبر فعله هذا نقضاً لعهد كما قال الأوزاعي . والحربي يقتل .

ثانياً / أنه ينبغي البراءة من أعداء الله وبغضهم وعدم موالاتهم وأن من والاهم يخشى عليه من الردة وقد قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ وقال ﴿ وَمَنْ يَنْوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

ثالثاً / أن الولاء والبراء عقيدة قلبية لا تتعلق بالمعاملة ولذلك أمر الله بالإحسان إلى غير الحريين من الكفار من غير محبة ولا نصره ولا موالاة وإنما يخالفهم بخلق حسن تقرباً إلى الله ولعلمهم يرغبون في الإسلام بحسن تعامل أهلهم معهم .

رابعاً / أن الدين جاء بحفظ حقوق الناس حتى الكفار فقد أمر برد ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي أسلمن وهاجرن إلى الله ورسوله وجعله كالمخالعة ولم يجعل إسلامهن سبباً لأكل مال الزوج ولو كان كافراً .

خامساً / ضعف النساء ولذلك لم يجعلهن الشارع كالرجال الذين يردون إلى الكفار بل جعل لهن الامتحان فإن كن مؤمنات حقاً لم يجوز ردهن إلى الكفار ولعل ذلك خشية الفتنة عليهن لضعفهن بخلاف الرجل الذي يقدر على تجاوز المحن والصبر على الابتلاء أكثر من المرأة والعلم عند الله تعالى .

سادساً / أن ملامسة الرجل للمرأة فتنة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو أصدق الناس إيماناً وأطهرهم قلباً يمتنع من مصافحة النساء بغيره من باب أولى وقد ورد في الحديث ( لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَاطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ )

سابعاً / أن الزنا قد كان شنيعاً عند العرب في الجاهلية ولذلك قالت هند : وهل تزني الحرة . كالمتعجبة من نهيهن عن الزنا . لأنه جريمة في كل الأديان والمعتقدات وما يروج له دعاة الحرية من التبرج والسفور والدعوة إلى الزنا صراحة إنما هو لإشباع رغباتهم الجنسية بعيداً عن كل القيم والأخلاق الإنسانية .

ثامناً / أن إسقاط الأجنة جريمة منكرة وهو قتل متعمد وقد يجوز في حال الاضطرار إذ قال الطبيب الناصح إن هلاك الأم في بقاءه في بطنها وقد لا يكون ذلك إلا إذا مات في بطنها والعلم عند الله تعالى .

تاسعاً / أن إدخال الولد على الزوج وادعاء أنه منه جريمة منكرة لما فيه من اختلاط الأنساب وإدخال الغريب في بيت الزوج وقد يترتب عليه الاختلاط مع بنات لسن له بمحارم وقد يرث مال من ليس له بوارث مع ما فيه من التساهل بجريمة الزنا وغير ذلك من المفاسد التي نهى الشارع عنه من أجلها .

عاشراً / أن أهل الكتاب كالمشركين لا يجوز موالاتهم ولا محبتهم .

## سورة الصف مدنية وقيل مكية وآياتها (١٤)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة الصف

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي نزه الله عن النقائص وقيل ذكر الله وقيل صلى الله واللفظ يعم هذه المذكورات ، ومعلوم في قواعد التفسير أن اللفظ يحمل على كل المعاني الذي يحتملها ما لم يكن بينها تضاد ولا تضاد هاهنا .  
﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ العالم العلوي من الملائكة وغيرهم . ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ العالم السفلي من الجن والانس والدواب والطير والحجر والشجر والنبات وكل شيء في الأرض سوى الكافر من الجن والانس .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) العزيز في سلطانه الحكيم في أفعاله .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) أي عظم بغضاً عند الله هذا الفعل . عن عباس قال : كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمانٌ لاشك فيه وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناسٌ من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) ونحوه عن أبي صالح ومجاهد . والقول الآخر أنهما كانوا يفتخرون في القتال بأموهم لم يفعلوها قال قتادة : بلغني أنها كانت في الجهاد ، كان الرجل يقول : قاتلت وفعلت ولم يكن فعل ، فوعظهم الله في ذلك أشد الموعظة . وقال الضحاك : أنزل الله هذا في الرجل يقول في القتال ما لم يفعله من الضرب والطعن والقتل . وقولٌ ثالث أنهم المنافقون كانوا يعدون المؤمنين النصر فلم يفعلوا وهذا قول بن زيد وقد ذكر هذه الأقوال الطبري في تفسيره ورجح الأول فأما الثالث فبعيد جداً لأن الله وصفهم بصفة الإيمان وليس أهل النفاق كذلك وأما الثاني فبعيدٌ لأنه يتضمن قول الكذب ولم يكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كذلك فبقي الأول .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ﴾ (٤) قال البخاري : قال بن عباس ﴿مَرْصُوصٌ﴾ ملصق بعضه ببعض . وقال غيره بالرصاص . انتهى . وقال السيوطي : أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ﴿كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ﴾ مثبت لا يزول ملصقٌ ببعضه ببعض وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : ألم تروا إلى صاحب البناء كيف لا يحب أن يختلف بنيانه

فكذلك الله لا يحب أن يختلف أمره ، وإن الله وصف المسلمين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به . انتهى من الدر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥٠ ﴾ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمًا فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ مَا أُريدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَعَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْعَضْبَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُودِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ . متفق عليه وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَيِّئًا لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءٌ مِنْهُ فَأَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَرُ هَذَا التَّسْتُرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُذْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَحَلَا يَوْمًا وَخَدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ غُرِيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبَسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا ، أَوْ أَرْبَعًا ، أَوْ خَمْسًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ٥١ ﴾ متفق عليه قال القرطبي ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رموه بالأدرة حسب ما تقدم في آخر سورة الأحزاب ، ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون : إنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور ، ومن الأذى قولهم ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ من (١٣٨) سورة الأعراف وقولهم ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا ﴾ من (٢٤) سورة المائدة وقولهم : إنك قتلت هارون . ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يحترم ويعظم . ودخلت قد على تَعْلَمُونَ للتأكيد ، كأنه قال : وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه . انتهى من تفسيره . وقوله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي لما مالوا عن الحق وعدلوا عنه بمحض أرائهم بعد معرفتهم الحق أmaal الله قلوبهم إلى الضلالة وسلبهم الهداية ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥٠ ﴾ الخارجين عن طاعته . قال بن كثير : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاع الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان كما قال تعالى ﴿ وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ أَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٥١ ﴾ سورة الأنعام وقال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ ﴾

جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ سورة النساء ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾ انتهى. قال بن جرير: وَاللَّهُ لَا يُؤَفِّقُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ الْقَوْمَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ . انتهى.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ( إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ ) رواه البخاري وعن أبي موسى قال : سَمَى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفَظْنَا فَقَالَ ( أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمَقْفِي ، وَنَبِي الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ ) ذكره بن كثير في تفسيره ونسبه إلى مسلم والطيالسي . وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ( إني عند الله مكتوب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيئته ، وسأخبركم بأول ذلك : دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، والرؤيا التي رأت أُمِّي وكذلك أمهات النبيين يرين ، أنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام ) رواه الطبري في تفسيره ورواه بن حبان في صحيحه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦﴾ قيل المراد عيسى عليه السلام وقيل محمد صلى الله عليه وسلم قال بن كثير : قال ابن جريج وابن جرير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد ، أي : المبشر به في الأعصار المتقدمة المنوّه بذكره في القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ انتهى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧﴾ لا أحد أظلم أي أكثر ظلماً من شخصٍ يفترى على الله الكذب بزعمه أن القرآن سحر وأن النبي صلى الله عليه وسلم ساحرٌ وكذاب . وقيل يفترى على الله الكذب بأن ينسب له الصاحبة والولد والشركاء . قال بن كثير : أي لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص . انتهى.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ يحاولون إطفاء الحق وإبطاله بالكذب الذي يتلفظون به بأفواههم ، ولكن الله سيرد باطلهم ويظهر الحق رغماً عن الكافرين . قال القرطبي : في نُورِ اللَّهِ هنا خمسة أقاويل : أحدها : أنه القرآن ، يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، قاله ابن عباس وابن زيد. والثاني : أنه الإسلام ، يريدون دفعه بالكلام ، قاله السدي . الثالث : أنه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يريدون هلاكه بالأراجيف ، قاله الضحاك . الرابع : حجج الله ودلائله ، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم قاله ابن بحر . الخامس : أنه مثل مضروب ، أي من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلاً ممتنعاً فكذلك من أراد إبطال الحق ، حكاه ابن عيسى . انتهى . ولا مانع من حمل الآية على كل هذه المعاني لأنها من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد ومعلوم في قواعد التفسير أن الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها ما لم يكن بينها تضاد ولا تضاد هاهنا . قال ابن جرير : واختلفت القراء في قراءة قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين ( مُتِمُّ نُورُهُ ) بالنصب . وقرأه بعض قراء مكة وعامة قراء الكوفة ( مُتِمُّ ) بغير تنوين ( نورهِ ) خفضاً ، وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب عندنا . انتهى .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الله جل وعلا أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى وهو القرآن ودين الحق وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليجعل له الغلبة والعلو على أهل الديانات والملل قاطبة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ رغماً عن أهل الشرك الذين يتخذون مع الله إلهاً آخر . قال السعدي: أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان ، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان فأما نفس الدين فهذا الوصف ملازم له في كل وقت ، فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه وصار له الظهور والقهر ، وأما المنتسبون إليه فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم فكذلك لا يقوم لهم أحد ولا بد أن يظهرها على أهل الأديان ، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه ، لم ينفعهم ذلك ، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم ويعرف هذا من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم . انتهى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء من الله جل وعلا لعباده المؤمنين قال بن مسعود رضي الله عنه : إذا سمعت الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأصغ لها سمعك فإنه خيرٌ تؤمر به أو شرٌ تصرف عنه . ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيرٍ يُجِيرُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أنعم بها تجارة المتاجرة مع الله جل وعلا ففيها الخلاص من النار والفوز بالجنة والنعيم المقيم . ثم بين لهم ماهية التجارة التي تنجيهم من عذابٍ أليم فقال ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ تؤمنون بالله رباً وإلهاً واحداً لا شريك له وتؤمنون بأن محمداً رسول الله فتصدقونه بما يقول وتطيعونه بما يأمر ، وتجاهدون أعداء الله بأموالكم وأنفسكم ، وقدم الأموال على الأنفس لأن أكثر الناس لا يستطيع الجهاد بنفسه لكبرٍ أو صغرٍ أو مرضٍ أو غير ذلك وكذلك النساء والعبيد لا يجب عليهم الجهاد بالنفس فيجاهدون بأموالهم . ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خيرٌ لكم من تجارة الدنيا



فهو خير لكم في دينكم ودنياكم وآخرتكم ، فاعلوا دينكم وابتشروا في الأرض ويهربكم الأعداء فتسلموا من شرهم في دنياكم فإنما يغير الأعداء على من لا يهابون ، وأما في آخرتكم فيقول تعالى ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ لم يأت بحرف التبعية ( من ) ليعلم المجاهد أن الله يغفر ذنبه كله قال صلى الله عليه وسلم ( يغفر للشهيد من أول قطرة دم ) وذلك يشمل الصغائر والكبائر . ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ بساتين خضراء ومياه عذبة . ﴿ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ ﴾ قال السعدي : جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة . انتهى . وقال الطبراني : طيبها الله بالمسك والرياحين . انتهى . وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن مساكن أهل الجنة فقال ( لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، ملاطها المسك ، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت وتراجمها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ) ﴿ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴾ في دار إقامة لا زوال لها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ لا الفوز بالمناصب الدنيوية والأموال فإنها سرعان ما تزول .

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وبشرى لكم أخرى تحبونها في الدنيا وهي الانتصار على الكفار إن قاتلتم لنصرة دين الله كما قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ سورة محمد وقال تعالى ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ من ( ٤٠ ) سورة الحج

وقوله ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ فتح الأمصار . قال الكلبي : فتح مكة . وقال عطاء : فتح فارس والروم . ﴿ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بهذا الفتح وهذا النصر المبين من رب العالمين . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبشرهم بذلك فيستبشر المؤمنون ويفرحون ويقول المنافقون ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ من ( ١٢ ) سورة الأحزاب حتى جاء الفتح وصدق موعود الله ورسوله وهذا من إعجاز القرآن أن يتكلم عن أمر مستقبل أنه سيكون فيكون كما أخبر به القرآن . وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم بفتح قسطنطينية وروما فأما القسطنطينية فافتحها محمد الفاتح العثماني بعد قرون متطاولة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وأما روما فنحن في انتظار فتحها وهو واقع لا محالة كما أخبر بذلك الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم فأبشروا يا أهل الإسلام .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ بنصرة دينه ونبيه باللسان والسنان والحجة والبرهان . ثم أرشدهم إلى فعل الصالحين قبلهم ليقتمدوا بهم فقال ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي من يناصريني ويعاونني ويقوم معي في تبليغ دين الله . وقيل أن ( إلى ) هنا بمعنى ( مع ) أي من أنصاري مع الله ولكن الأولى ما ذكرنا . وقد قال البخاري : قال مجاهد ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ . انتهى .

فابتدر الحواريون هذه الفرصة ولم يضيعوها ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ والحواريون هم خلص أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكان من نتاج دعوتهم أن آمنت طائفة من بني إسرائيل ﴿ فَأَمَمَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ فنصر الله الطائفة المؤمنة لما صدقوا في نصرته دينه فقال ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلٰى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أي عالين منتصرين على الكافرين . وعن بن عباس ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَصْبَحُوا ﴾ اليوم ﴿ ظَاهِرِينَ ﴾ وقال إبراهيم النخعي : أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد أن عيسى كلمة الله وروحه . ذكرهما السيوطي في الدر . والأقرب أن النصر المذكور للحواريين وأنصار المسيح عليه السلام كان في الزمن الأول بعد رفع المسيح وهو قول مجاهد وبديل لذلك انتشارهم في الأرض وخوف ملك روما على ملكه منهم حتى سعى قسطنطين الأول أحد ملوك الروم إلى الحيلة بجمعه علماء النصرانية بطوائفها والوثنية التي هي عقيدة ملك الروم ليتفقوا على دين يجمع ما بين المسيحية والوثنية ثم حاربوا دين المسيح الصحيح البعيد عن الوثنية وقتلوا أهله حتى فروا في الجبال والصحاري والقفار حتى نصرهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فدخلوا في الإسلام فأصبحوا مسلمين ، وأما أهل العقيدة المختلطة التي اخترعها قسطنطين واتباعه فقد كفروا بالإسلام وادعوا أنهم اتباع المسيح عليه السلام وحاشاه أن يدعوا إلى الوثنية والشرك أو ينصر أهله .

من دروس سورة الصف

أولاً / في قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قد تشمل الآية من يقول قولاً يثبت فيه على الخير ثم لا يفعل مثل الذي يقول كقوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة قال أبو الأسود الدؤلي :

لا تسنه عن حُلُقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وابداً بنفسك فانها عن غيرها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم

وقال أبو العتاهية:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابك تسطع

ولكن مع هذا فقول الخير مع عدم القيام به ، خيرٌ من تركه مطلقاً لا يقول ولا يفعل ، قال الحسن لمطرف بن عبد الله : عظ أصحابك . فقال : إني أخاف أن أقول ما لا أفعل . قال : يرحمك الله! وأينا يفعل ما يقول! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جببر يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا نهي عن منكر .

ثانياً / لا يقول الإنسان قولاً ولا يتمنى فعلاً لم يجب عليه بأصل الشرع فقد لا يقدر على الوفاء به فيحاسب على قوله الذي لم يفي به وأمانيه التي تمنّاها كأن يتمنى لقاء العدو وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ( لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ) فلربما تمنى لقاء العدو فلما حضره العدو خاف منهم لعددهم وعتادهم فهرب ولم يفي بما وعد ، ومن الناس من ضرب العهود والمواثيق مع الله فلم يفي بها كما قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ سورة التوبة ولو أنه سكت حتى إذا آتاه الله من فضله فإن شاء تصدق وإن شاء امتنع من غير الزكاة الواجبة لم يكن عليه مأثم وما عوقب بهذا العقاب الشديد ولذا قال الصالحون : ليس شيء أولى بالحبس من اللسان . وكان أبو بكر الصديق يمسك بلسان نفسه ويقول هذا الذي أوردني الموارد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ( أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك )

ثالثاً / فضل الجهاد وتسوية الصفوف فيه كتسوية الصفوف في الصلاة ومحبة الله جل وعلا لذلك كما في قوله ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْضُوضٍ ﴾ (٤)

رابعا / أن الذي يؤذي أنبياء الله ورسله يكون مصيره الزيف والهلاك والعقاب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذَوْنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١) سورة التوبة وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (٥٧) سورة الأحزاب

خامساً / فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مبشّر به في الكتب السابقة وقد بشر به عيسى عليه السلام بني إسرائيل وصفته في التوراة والإنجيل ولذلك كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكن منع أكثرهم من اتباعه الكبر والحسد وزعموا أن ليس هو النبي المبشر به وأن ما جاء به سحر ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٦) وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦) سورة البقرة وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠) سورة الأنعام وقال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨١) بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصَابِ عَلَى عَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١٠) سورة البقرة

سادساً / أن الدين الحق منصور بنصر الله ، وأن الإسلام سيعلوا على الأديان كلها بل جاء في تفسير بعض السلف لقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) أنه لا يبقى في الأرض دينٌ إلا الإسلام ، وذلك في آخر الزمان عند خروج المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فإنه سيقا تل الأعداء ولن يقبل الجزية ولن يقبل إلا الإسلام .

سابعاً / أن التجارة الراجعة حقاً هي التجارة مع الله جل وعلا بالأعمال الصالحة المقربة إليه جل وعلا فهي التجارة المنجية من عذاب الله ، المكسبة لرضوانه وجناته جنات النعيم .

ثامناً / ينبغي للمؤمن أن لا يكون سلبياً بل ينبغي أن يكون إيجابياً ينصر دين الله ويدعوا إليه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وليبشر بنصر الله وتأييده له في الدنيا مع ما له من الكرامة عند الله في الدار الآخرة ولذلك حث الله عباده المؤمنين على ذلك فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّنَ مَن أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١٤) سورة الصف

## سورة الجمعة مدنية وآياتها (١١)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة الجمعة

عن ابن أبي رافع قال استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى لنا أبو هريرة الجمعة فقراً بعد سورة الجمعة في الركعة الآخرة ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَقِفُونَ﴾ قال فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما بالكوفة فقال أبو هريرة إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما يوم الجمعة . رواه مسلم وروى أبو داود والنسائي وغيرهما عن ابن عباس نحوه .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يصلي لله وينزهه الله ويذكر الله كل ما في السماوات وكل ما في الأرض إلا الكفرة من الجن والانس . ﴿الْمَلِكِ﴾ المتفرد بالملك كله مالك الملوك وما ملكوه . ﴿الْقُدُّوسِ﴾ الطاهر المنزه عن النقائص والعيوب . ﴿الْعَزِيزِ﴾ العزيز في سلطانه ، يعز أوليائه ، ويتنقم من أعدائه . ﴿الْحَكِيمِ﴾ في أفعاله يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها .

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي العرب وكان أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ فعبّر بالأكثر على العموم ، وكانوا يعتمدون على الحفظ ، ولذلك كانت ذاكرتهم قوية ، يحفظون المطولات من القصص والقصائد والخطب والمواظم وكانوا على التوحيد ملة إبراهيم عليه السلام حتى قدم عليهم عمرو بن لحي بالأصنام من أرض فارس وكان سيداً مطاعاً فدعاهم إلى عبادتها فعبدوها حتى انتشر بينهم الشرك والكفر والكهانة والسحر وغيرها من البدع والمنكرات مع مرور الزمن حتى غدو في ضلال مبين كما وصفهم رب العالمين ، فبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم يتلوا عليهم القرآن ، ويدعوهم إلى التوحيد ، ويطهرهم من دنس الشرك ، ويعلمهم القرآن والسنة .

﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى آخرين من غير العرب ليلحقوا بهم في الدخول في الإسلام وهو العزيز الحكيم في تدبيره .

قال سعيد بن جبير ومجاهد : هم الأعاجم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال : قلت : من هم

يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً وفيما سلمان الفارسي وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال ( لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء ) رواه البخاري وقال عكرمة : هم التابعون .

وقيل هم كل من كان من بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العرب والعجم وغيرهم إلى قيام الساعة وهو قول مجاهد وابن زيد ومقاتل بن حيان ورجحه الطبري . وقول عكرمة يدخل لغةً في هذا . قال بن زيد ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ لم يأتوا بعد .

وهذه الآية تدل على أن رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عامة إلى الناس كلهم وليست خاصة بالعرب وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ من (٢٨) سورة سبأ وقال تعالى ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ من (١٥٨) سورة الأعراف

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ قال بن عباس : الدين . وإنما قال ذلك لأن الآيات تتحدث عن تفضل الله على عباده ببعثة الرسول إليهم وتركيتهم من الشرك وتعليمهم الكتاب والسنة وذلك أفضل النعيم الذي يتفضل الله به على من يشاء من عباده ، وهذا يدل على أن الدين ليس كسباً يكسبه الناس بذكائهم ، ويدل لذلك أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم ( لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء ) أي لو كان تحصيل الدين بالذكاء لكان أسبق الناس إليه الفرس لأنهم كانوا أكثر الناس تقدماً وتطوراً في أمور الحياة في ذلك العصر . وعند قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ قال بن جرير : الذي يقل فضل كل ذي فضل عنده . انتهى . أي عند فضله .

وقيل المراد بالآية النبوة والوحي فيكون خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لكن سياق الآيات يدل على الأول . ويمكن أن يراد بها الأمرين . فإن الله تفضل على نبيه بالنبوة والوحي ، وتفضل على عباده ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وهدايتهم إلى الإسلام .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ مثل الذين كلفوا بالعمل بالتوراة وما فيها من وجوب الإيمان والتصديق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه ، ثم لم يعملوا بما فيها فمثلهم في ذلك كمثل الحمار الذي يحمل كتب علم لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها . وهو قول بن عباس وقتادة والضحاك وابن أبي نجيح : أن الأسفار الكتب . وقال بن زيد : الأسفار : التوراة . وعن بن عباس :

كتاب الله الثقيل . وقال الطبري: الأسفار جمع سفرٍ وهي الكتاب العظام . انتهى . وقال القرطبي : جمع سفرٍ وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ . انتهى .

﴿ يَنْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بنس كلمة ذم . قال في لسان العرب وفي العباب الزاخر : ينس : كلمة مستوفية لجميع الذم ، كما إنَّ نَعَمَ كلمة مستوفية لجميع المدح . أي هذا المثل المذموم هو مثل الذين كذبوا بآيات الله بعد معرفتهم إياها . قال القرطبي : وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء . انتهى . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر حين تركوا العمل بما أنزل الله إليهم فعاقبهم الله بحرمانهم من الهداية .

﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قل يا محمد لليهود الذين يدعون أنهم أولياء الله من دون الناس أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في دعواهم الولاية لأن أولياء الله لهم الكرامة عند الله في الدار الآخرة وهذا تحدي لهم وقد بين الله حقيقة أمرهم فقال ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي لا يتمنون الموت لأنهم قد خالفوا التوراة ولم يأتروا بأمر الله وارتكبوا الفواحش والمنكرات فهم لا يريدون لقاء الله بسبب ما قدمت أيديهم من الذنوب والعصيان . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ بما في نفوسهم من كره لقاء الله وهو كذلك عليهم بأعمالهم فيجازيهم بها . وكان بن كثير رحمه الله يرى أن هذه دعوة إلى المبالهة أي فلنتباهل ولنندعوا بالموت على الكاذب في دعواه الولاية لله .

﴿ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَدَى تَفْرِوتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قل يا محمد لليهود إن الموت الذي تفرون منه ولا تريدونه بسبب كفركم وذنوبكم أنه سوف يأتيكم لا محالة فالأعمار محدودة والآجال مكتوبة وعبر بالملافة كأنه يستقبلهم من أمامهم ولا يلحق بهم من خلفهم فمهما فروا عنه وظنوا أنهم ابتعدوا عنه فإنه سيكون أمامهم يستقبلهم ويلتقي بهم في طريقهم . ثم المراد بعد الموت إلى الله الذي يعلم ما غاب عن الأنظار وما شاهدته الأنظار ، وفي هذا الاسم الكريم ﴿ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ ﴾ إشارة إلى علمه بذنوبهم ما أظهروا منها وما أخفوه ولذا قال ﴿ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم بعملكم .

﴿ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ وهو النداء الثاني الذي يكون بعد صعود الإمام المنبر وسلامه على الناس . ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي امضوا بجدٍ إلى الصلاة التي يذكر الله

فيها واتركوا البيع وهذا أمرٌ والأمر للوجوب ويدل لذلك أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم ( لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين ) وقال (من ترك الجمعة ثلاث مراتٍ تهاوناً بما طبع الله على قلبه ) فيجب على كل مكلفٍ أن يخرج إلى الجمعة إلا المريض والمسافر والمرأة والعبد والطفل ومن حبسه حابس كخوفٍ من سلطانٍ ظالمٍ أو سبيٍّ أو مطرٍ أو وحلٍ ونحو ذلك . ووجوب الجمعة على من يسمع النداء وهو قول ربيعة والزهري والشافعي وأحمد وإسحاق قال الشافعي: اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صبيّاً والأصوات هادئة والريح ساكنة وموقف المؤذن عند سور البلد. وقيل الوجوب على من كان في المصر سمع النداء أو لم يسمعه ولا تجب على من كان خارج المصر ولو سمع النداء وهو قول الحنفية ، وقال أبو هريرة وابن عمر وأنس : تجب على من كان في المصر على ستة أميال . وقال ربيعة : أربعة أميال. وقال مالك والليث : ثلاثة أميال. ذكر هذه الأقوال القرطبي رحمه الله في تفسيره . ووقت الجمعة بعد الزوال كالظهر وفي البخاري عن أنس بن مالك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس. وهو قول الجمهور . وقال أحمد تصلي قبل الزوال لقول سلمة بن الأكوع : كنا نصلي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ننصرف وليس للحيطان ظل. وقول بن عمر: ما كنا نقيّل ولا تنغدى إلا بعد الجمعة. ولكن ليس في ذلك التصريح بأن الصلاة كانت قبل الزوال بل يحتمل أن سلمة أراد ليس للحيطان ظلّ يتمكن الرجل من الاستظلال به فيحتمل أنها وقعت بعد الزوال لكن لقصرها انصرف الناس ولم يجدوا للحيطان ظلاً يتظللون به وهذا يكون في أول الزوال . وقد روي عن سلمة أنه قال : كنا نجتمع مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا زالت الشمس ثم نرجع نتبع الفيء. أي الظل فإذا طالت الخطبة والصلاة وجدوا فيئاً وإذا قصرت لم يجدوا . وأما بن عمر فكان يتقدم إلى الصلاة ويؤخر المقبل والغداة بعد الجمعة وهذا حال أكثر الناس في زماننا هذا .

ويسن الاغتسال للجمعة وليس بواجبٍ على الصحيح من قولي العلماء لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام. ومن مس الحصى فقد لغا ) رواه مسلم وعند النسائي وأبي داود في سننهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ( من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت. ومن اغتسل فالغسل أفضل ).

﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝۱ ﴾ حضور الجمعة خيرٌ لكم في أمر دينكم .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝۱۰ ﴾ الأمر بعد النهي يكون للإباحة فلما نهاهم عن البيع وقت الصلاة أذن لهم فيه بعد انقضاء الصلاة كما



قال تعالى ﴿وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ من (٢) سورة المائدة بعد قوله ﴿عَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ من (١) سورة المائدة وقوله ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ من (٩٥) سورة المائدة فهو يدل على إباحة الصيد لا وجوبه وكذلك هاهنا تدل الآية على إباحة البيع والانتشار في الأرض لا على وجوبه ، ولما أذن لهم في طلب الدنيا مع ما يصيب أهلها من الغفلة عن ذكر الله ، أوصاهم بكثرة ذكره جل وعلا ليحصلوا الفلاح في الدنيا والآخرة لئلا تلهيهم الدنيا فيخسروا الآخرة .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أقبلت غير يوم الجمعة ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم فنار الناس إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ رواه البخاري. قال الطبري: كانت التجارة زيتاً قدم به دحية بن خليفة من الشام . قال الحسن : إن أهل المدينة أصابهم جوعٌ وغلاءٌ سعرٌ فقدمت غيرُ النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها فخرجوا والنبي صلى الله عليه وسلم قائمٌ كما قال الله عز وجل .

وقال مجاهد : اللهو الطبل . وقال مقاتل بن سليمان : وذلك أن العير كانت إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطلل والتصفيق. وروى الطبري بسنده عن جابرٍ قال : كان الجواري إذا نكحوا يمرون بالكبر والمزامير ويتركون النبي صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر وينفضون إليها . قلت إن ثبت ذلك فهو قبل تحريم المزامير والكبر وهو الطبل .

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أن ما عند الله من الثواب والأجر العظيم والرزق الوافر لمن جلس يستمع الخطبة والصلاة خيرٌ مما انصرفوا من أجله من اللهو والتجارة ، وذلك أن الله جل وعلا هو خير الرازقين الذي كل رزقٍ فهو من عنده .

من دروس سورة الجمعة

أولاً / في قوله تعالى ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) دلالة على أن رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عامة إلى الناس كلهم وليست خاصةً بالعرب وقد قال الله تعالى في آياتٍ أخر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ من (٢٨) سورة سبأ وقال تعالى ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ من (١٥٨) سورة الأعراف

ثانياً / أفضل النعيم هو نعمة الدخول في الإسلام يدل لذلك قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وتفسير بن عباس له بأنه : الدين . ولا شك أن النعم الدينية كالأكل والشرب والمال والولد ونحوها تزول عن صاحبها أو يزول هو عنها بالموت ، ولكن يبقى العمل فإن كان مسلماً فمثاله الجنة ، وإن كان كافراً حرمت عليه الجنة ومأواه النار ولن ينفعه ماله وولده .

ثالثاً / أن الذي يعرف العلم ولا يعمل به كالحمار الذي يحمل كتب علم على ظهره ولا ينتفع بها .

رابعاً / أن ولاية الله لا تنال بالأمانى ولكن بالإيمان والعمل الصالح والتقوى ، وقد زعم اليهود أنهم أولياء الله فامتنحوا بتمني الموت ففروا منه وانكشفت حقيقتهم وأنهم أبعد الناس عن ولاية الله ومحبة لقياءه .

خامساً / أن الموت لا مفر منه ، وأنه آتٍ لا محالة ، لكن الكيس من يعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى .

سادساً / ليس المراد بالسعي إلى الجمعة العدو وإنما المضي بجد . وقيل السعي بمعنى القصد قال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على الاقدام ، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع . انتهى وقيل السعي العمل كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ من (١٩) سورة الإسراء أي عمل لها عملها . وقال قتادة : السعي أن تسعى بقلبك وعملك . فجمع بين الأمرين .

سابعاً / أن البيع يحرم بعد النداء الثاني للجمعة وهو الذي يكون بعده الخطبة . ولذلك عاب الله على قوم خرجوا للتجارة عندما سمعوا بالعبير القادمة وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائماً يخطب للجمعة .

ثامناً / أن نعيم الآخرة لا يقارن بنعيم الدنيا مهما تعاضم نعيمها فنعيم الآخرة أعظم وأبقى ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ

خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَمِنَ الْجَزَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴾

## سورة المنافقون مدنية وآياتها ( ١١ )

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

### تفسير سورة المنافقون

عن ابن أبي رافع قال استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة ف صلى لنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الآخرة ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ ﴾ قال فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما بالكوفة فقال أبو هريرة إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما يوم الجمعة . رواه مسلم وروى أبو داود والنسائي وغيرهما عن ابن عباس نحوه .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَلُولٍ يَقُولُ : لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَقَالَ أَيُّضًا لَمَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي فَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبَنِي فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصْنِنِي مِثْلُهُ فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ لِيُخْرِجَكَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ . رواه البخاري .

وعن أنس بن مالك يقول خزنت على من أصيب بالحرّة فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدّة حزني يذكر أنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ وَشَكَ ابْنُ الْفَضْلِ فِي أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَقَالَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِأُذُنِهِ ) رواه البخاري .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كُنَّا فِي غَزَاةٍ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي جَيْشٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لِلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لِلْمُهَاجِرِينَ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فَقَالَ فَعَلُوهَا أَمَا وَاللَّهِ لَمَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُقُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعُهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ

وَكَاثِبِ الْأَنْصَارِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ . رواه البخاري . وعند غيره قال سفيان : يرون أنها غزوة بني المصطلق . وعند الترمذي قال له ابنه عبد الله : والله لا تنقلب حتى تفر أنك الدليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل . وعند غيره فلما بلغوا المدينة أخذ ابنه السيف ثم قال لوالده : أنت تزعم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الطبري بسنده أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي فِيْمَا بَلَغَكَ عَنْهُ ، فَإِنْ كُنْتُ فَاعِلاً ، فَمُرِّي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ ، فَوَ اللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ الْخَرْجَ مَا كَانَ لَهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلُهُ ، فَلَا تَدْعُنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي بِمَشْيِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلُهُ ، فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ ، فَأَدْخُلَ النَّارَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( بَلْ نَرْفُقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا ) وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِذَا أَحْدَثَ الْحَدَّثَ كَانَ قَوْمُهُ هُمُ الَّذِينَ يُعَاتِبُونَهُ ، وَيَأْخُذُونَهُ وَيُعَنِّفُونَهُ وَيَتَوَعَّدُونَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ أَمَرْتَنِي بِقَتْلِهِ لَأَرَعَدْتَ لَهُ آتَفٌ لَوْ أَمَرْتَهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتُهُ قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ : قَدْ وَاللَّهِ عَلِمْتُ لَأُمُرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ بَرَكَهً مِنْ أَمْرِي . انتهى

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ يا محمد . ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ بالسنتهم . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ حقيقة . سواء أقر بذلك الناس أم لم يقرؤا . ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) في دعوهم الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم فهم يظهرون خلاف ما يبطنون من الكفر والتكذيب برسالة النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ اتخذوا حلفهم سترًا ووقاية من المؤمنين لئلا يقتلواهم . قال ابن عباس : حلفهم بالله إنهم لمنكم أجنوا بأيمانهم من القتل والحرب . ونحوه قال الضحاك . وقال قتادة : اتخذوا حلفهم جنة ليعصموا بها دماءهم وأموالهم . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أعرضوا عن الصدود وهو الإعراض قال الطبري : فَأَعْرَضُوا عَنْ دِينِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي شَرَعَهَا لِحَلْفِهِ . انتهى وقال في تفسيره لآية المجادلة : فَصَدُّوا بِأَيْمَانِهِمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا جُنَّةً الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا وَحَكَّمُوا اللَّهَ وَسَبِيلَهُ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْقَتْلُ ، أَوْ أَخْذُ الْجَزَاةِ ، وَفِي عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ الْقَتْلُ فَالْمُنَافِقُونَ يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فِيهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ، وَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ ، فَيَحُولُونَ بِذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَتْلِهِمْ ، وَيَمْتَنِعُونَ بِهِ مِمَّا يَمْتَنِعُ مِنْهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ . انتهى . ويمكن أن يكون المعنى : منعوا الناس

من الدخول في الدين بالكيد والمكر. قال القرطبي ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أعرضوا ، وهو من الصدود أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسبي واخذ الأموال ، فهو من الصد ، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدي بهم غيرهم . وقيل : فصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام بأن يقولوا ها نحن كافرون بهم ، ولو كان محمد حقاً لعرف هذا منا ، ولجعلنا نكالا. فبين الله أن حالهم لا يخفي عليه ، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان . انتهى.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، ومن الحلف بالكذب ، ومن الصد عن سبيل الله ، فتلک أعمالٌ خبيثة سيئة .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وهذا تفسيرٌ لسوء عملهم وهو الكفر بعد الإيمان لأن الذي لم يؤمن بعد إذا رأى هؤلاء قد رجعوا للكفر بعد إيمانهم قال لو كان في الدين خيرٌ لما رجع عنه هؤلاء فصدوا الناس عن الدخول في الدين فعاقبهم الله جل وعلا بأن طبع على قلوبهم أي ختم عليها بالكفر فلا يفهمون القول الحق بعد ولا يؤمنون به إلا أن يشاء الله .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لحسن قامتهم وصورتهم . ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ لحسن منطقهم وإظهارهم الإيمان وإخفاؤهم الكفر . ﴿كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ جمع خشبة والإسناد الاتكاء أي كأهم الخشب المسندة الى الحيطان فهي قوية لكنها لا تنفقه شيئاً . وقيل شبههم بالخشب التي قد تاكلت من الداخل لا يعلم الناس ما في جوفها من التاكل وإنما منعها من السقوط كونها مسندة إلى شيء يمسكها فكَذلك المنافقون أجوافهم خربة وإن كانوا يتكئون على ما أظهروه من الإيمان فلا يقتلهم المسلمون لذلك وقد قرأ الأعمش والكسائي وقنبل وأبو عمرو ( حُشْبٌ ) بسكون الشين وهي قراءة البراء بن عازب واختيار أبي عبيد . والبقية بضمها والقراءتان صحيحتان كما قال الطبري .

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ من الجبن والهلع يحسبون كل صائحٍ يصيح أنه نذير العدو وأن العدو قد قدم عليهم لإبادتهم . وقيل إذا سمعوا الصيحة في المسجد ظنوا أنهم قد كشف أمرهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتلهم . ﴿هُوَ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُ﴾ لكن الحقيقة أنهم هم أعداء الإسلام فينبغي الحذر منهم . ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ أي لعنهم الله بسبب إفكهم والإفك هو الكذب والدجل والبهتان كما في قصة الإفك . ويأتي بمعنى الصرف أي لعنهم الله كيف انصرفوا عن الطريق الحق مع وضوحه . قال الطبري: أَحْزَاهُمْ اللَّهُ إِلَى أَيِّ وَجْهِ يُصْرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ . انتهى . وقال القرطبي ﴿أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ أي يكذبون ، قاله ابن

عباس. قتادة: معناه يعدلون عن الحق. الحسن: معناه يصرفون عن الرشد. وقيل: معناه كيف تضل عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل. انتهى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وإذا فطن المؤمنون لبعض ما يحدثونه مما يخالف الدين وقالوا لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله أي توبوا وأقدموا على رسول الله يستغفر لكم لأنه مجاب الدعوة ﴿لَوْ أَنَّهُمْ وَرَأَوْهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي أشاروا إلى الامتناع برؤوسهم وأعرضوا بأجسادهم مظهرين الكبر والامتناع. قال الطبري: حركوها وهزوها استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وباستغفاره. انتهى. وقد قيل لعبد الله بن أبي بن سلول بعد مقالته تلك: لو أتيت النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر لك فلوى رأسه وقال: ماذا قلت؟ وقال: أَمَرْتُوْنِي أَنْ أُوْمِنَ فَأَمَنْتُ، وَأَمَرْتُوْنِي أَنْ أُعْطِيَ زَكَاةَ مَالِي فَأَعْطَيْتُ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ أَسْجُدَ لِمُحَمَّدٍ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فبين الله جل وعلا عقوبتهم وأنهم لن ينفعهم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لأنهم في حقيقتهم كفار والكافر لا ينفعه الاستغفار له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إن الله جل وعلا يعاقب الخارجين عن طاعته بحرماتهم من الهداية والتوفيق.

﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ثم فضحهم الله جل وعلا وبين ما تفوهت به ألسنتهم من معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنهم قالوا ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما علم هؤلاء الحمقى أن خزائن السماوات والأرض أي ما فيهما من الخيرات والأرزاق ملك لله وبيده يصرفه كيف يشاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٧﴾ ليست لهم عقول يفهمون بها الأمر على حقيقته وأن الأرزاق بيد الله وحده.

ثم بين قولاً آخر من أقوالهم فقال تعالى ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي حين نرجع من الغزو ونستقر في المدينة فحينها سيخرج الأعز الأذل ويعنون بالأعز أنفسهم وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأجابهم الله بقوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾ حقيقة ما يقولون به وأنه قد يكون سبباً في إخراجهم من المدينة كما قال تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَذَلُّ وَالَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ سورة الأحزاب

ثم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ لا تشغلکم التجارة وطلب المال والولد عن ذکر الله ، فإن من أعرض عن ذکر الله واشتغل بطلب الدنيا فهو من الخاسرين الذين خسروا رضوان الله والنعيم المقيم في الآخرة . قال عطاء والضحاك : المراد بذكر الله الصلوات الخمس المفروضة . وقال غيرهما الحج والزكاة . وقال الحسن : جميع الفرائض . وقيل لا تلهكم عن المداومة على الذكر وقيل عن قراءة القرآن ، وكلها من ذکر الله ، وإن كانت الخسارة بترك الفرائض أعظم من الخسارة بترك النوافل .

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ وأنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في أبواب الخير من الصدقات والبر والإحسان في حال الصحة والنشاط قبل مجيء الموت وحينها يكون الندم على عدم إخراج الصدقة وفعل الصالحات وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ( أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان ) متفق عليه وقيل المراد بها النفقات الواجبة دون المستحبة لأنها التي يكون عليها الندم . قال الضحاك : الزكاة والنفقة في الحج . وقال السيوطي : أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ قال : أزكي . ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ قال : احج . انتهى من الدر . وقال الطبري ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ يقول : فأزكي مالي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ يقول : وأعمل بطاعتك وأودي فرائضك . انتهى وقرأ ابن محيصن وأبو عمر ( وأكون ) والبقية ( وأكن ) وكلاهما قراءتان صحيحتان كما قال الطبري .

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ إنذارٌ من الله للبشر أن يستعجلوا بفعل الصالحات فإنه إذا حضر الأجل الذي قدره الله في اللوح المحفوظ فلن يؤخره الله عن مواعده المحدد ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

من دروس سورة ( المنافقون ) :

أولاً / عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ( أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ) وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ( آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ). قال الحسن : إن بني يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وأتمنوا فخانوا. إنما هذا القول من النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيل الإنذار للمسلمين والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال ، شفقاً أن تقضي بهم إلى النفاق. وليس المعنى: أن من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق . ذكره القرطبي في تفسيره .

ثانياً / أن المنافقين هم الخطر الأكبر على المسلمين لأنهم يعيشون بيننا ويتعرفون على أسرارنا ويساندون العدو في الخارج علينا فينبغي الحذر منهم كما قال تعالى ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ ﴾

ثالثاً / أن لا يغتر المسلم بالمظاهر من حسن الهيئة وطلاقة اللسان ونحو ذلك فإن المنافقين كما وصفهم الله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ فلا يعتمد على المظاهر وإنما يعتمد على المخابر لكن من وافق قوله وفعله الكتاب والسنة قبل منه ووكّل أمره إلى الله .

رابعاً / أن الجبن والهلع من صفات المنافقين كما قال تعالى ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ولذلك استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الجبن وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران وقال تعالى ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا أَسَاخِرَ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ سورة التوبة

خامساً / من صفات المنافقين الاستكبار عن قبول الحق والتوبة من الذنب كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾

سادساً / أن الله تعالى يعاقب المستكبرين عن قبول الحق بالطبع على قلوبهم بالضلالة وعدم التوفيق للهداية سابعاً / ينبغي أن لا يتشاغل المؤمن بأمر دنياه عن أمر آخرته بل ينبغي أن يحافظ على الفرائض ويكثر من النوافل ولا تشغله الدنيا وطلب المال والأولاد عن التزود للآخرة .



ثامناً / فضل الصدقة وكيف أن من حضره الموت يتمنى أن يعطى مهلة لكي يتصدق ولكي يعمل كعمل الصالحين الذين تزودوا بالأعمال الصالحة .

تاسعاً / ينبغي أن يستعد المؤمن للموت قبل مجيئه فإنه إذا حضر الأجل الذي قدره الله للعبد فلن يتأخر عنه ولن ينفعه طلب الرجعة فعليه أن يبادر بالعمل الصالح قبل فوات الأوان وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ( اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ) رواه النسائي وصححه الألباني

## سورة التغابن مدنية وقيل مكية وآياتها ( ١٨ )

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

### تفسير سورة التغابن

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يصلي لله وينزه الله ويذكر الله كل من في السماوات والأرض من المخلوقات ، ويستثنى من ذلك الكفرة من الجن والانس ، ولربما ذكروا الله في الشدة . ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ كل شيء مملوك لله جل وعلا . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ يحمده الخلائق على آلائه ونعمه . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ من العدم ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ﴾ لم يوحد الله ولم يقم بعبادته ﴿ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ قام بالتوحيد والعبادة ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم في الدار الآخرة .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي لأجل الحق وهو القيام بعبادته وطاعته . وقيل المراد خلقها حقاً بلا شك ولا ريب ، والأول أصح لأن الكفار يقولون أن الله هو خالق السماوات والأرض فلا حاجة أن يؤكد لهم ما قد أقروا به والعلم عند الله تعالى . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي شكّل خلقكم على أحسن صورة كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ سورة النين وقوله ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي إليه المرجع والمآب في الدار الآخرة .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ما يكون فيهما من شيء إلا يعلمه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ما تخفونه من الأقوال والأعمال وما تظهرونه . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ والله يعلم ما تكنونه في ضمائركم . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ألم تصلكم أخبار من سبق من الكفار فعاقبهم الله في الدنيا جزاء كفرهم ولهم عذابٌ موجع في الآخرة .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وسبب هذا العذاب أنهم قد جاءتهم الرسل بالأدلة الواضحة فلم يقبلوا قولهم واستكبروا وقالوا هؤلاء الرسل من البشر ونحن لا نقبل أن يدلنا إلى الطريق الصحيح بشر فكفروا بما جاءتهم به الرسل وتولوا عن قبول الحق

وما علموا أنهم هم الخاسرون وأن الله غني عنهم لأنه سبحانه هو الغني عن الخلق فلا يحتاج إليهم وهو الحميد المستحق للحمد بما أولاه من جزيل الفضل والانعام على عباده .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَلَئِنْ رَأَوْا وَعْدًا لَظَعْنُوكَ عَلَى اللَّهِ يُسِيرٌ ﴾ ﴿٧﴾ ادعى الكفار دعوى بلا علم أن الله لن يبعثهم فأمروا الله بنبيه صلى الله عليه وسلم أن يحلف بالله لهم أنهم سيبعثون من قبورهم يوم القيامة ثم يخبرون بما عملوا في الدنيا ويجازون على أعمالهم وهذا الأمر وهو البعث والجزاء هين يسير على الله جل وعلا .

﴿فَأَمِّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَالتَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ ثم حثهم على الإيمان بالله ورسوله وكتابه الذي أنزله ووصفه بأنه نور لأن النور يتبين به الطريق في الظلام فكذلك القرآن ينير للناس طريق الهدى .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ يوم يجمعكم الله أيها الناس ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة سمي بذلك لأن الله جل وعلا يجمع فيه الأولين والآخرين من الخلائق أجمعين ليقضي بينهم ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ وفي ذلك اليوم يكون التغابن والمغبون الخاسر لأن الغبن النقص والخسارة يقال غبنه إذا أنقصه حقه وأخذ الشيء منه بأقل من قيمته فجعله يخسر . قال القرطبي : قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام . قال : وقال الحسن وقتادة: بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجلٌ علم علماً فعلمه وضعفه هو ولم يعمل به فشقي به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به . ورجلٌ اكتسب مالاً من وجوهٍ يُسأل عنها وشح عليه وفطر في طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيراً وتركه لوارثٍ لا حساب عليه فيه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه . ورجلٌ كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي . انتهى . ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ يمحوها عنه . ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بساتين تجري فيها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ باقين فيها إلى الأبد . ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ذلك الربح العظيم .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والصنف الثاني الذين كفروا ولم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا بالقران ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أهلها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وبئس المرجع الذي رجعوا إليه بكفرهم وتكذيبهم .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١) ما يصيب الناس من المصائب فكلها لم تقع إلا بعلم الله وإذنه وقدره ، والمؤمن إذا أيقن بهذا بهذا رضي واطمأن قلبه وارتاحت نفسه ولم يجزع ولم يتسخط . قال البخاري : قَالَ عَلْقَمَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، ﴾ هُوَ الَّذِي إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ رَضِيَ وَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ . انتهى قال القرطبي : وقراءة العامة ( يَهْدِ ) بفتح الياء وكسر الدال لذكر اسم الله أولا . وقرا السلمي وقتادة ( يَهْدِ قَلْبَهُ ) بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء لأنه اسم فعل لم يسم فاعله . وقرا طلحة بن مصرف والأعرج ( نَهْدِ ) بنون على التعظيم ( قَلْبَهُ ) بالنصب . وقرا عكرمة ( يهدأ قلبه ) بهمزة ساكنة ورفع الباء أي يسكن ويطمئن . وقرا مثله مالك بن دينار إلا أنه لين الهمزة . انتهى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١) إشارة إلى أنه تعالى يعلم المصائب ومتى ستقع على العبد ويعلم ما يصنعه العبد تجاهها فيجازيه بعمله إن صبر ورضي أجر ، وإن جزع وتسخط حرم .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ بفعل الأوامر واجتناب النواهي ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٢) أي رجعت أي لم تقبلوا الإيمان والطاعة فليس على رسول الله إلا أن يبلغكم ويوضح لكم الأوامر والنواهي فإن قبلتم دخلتم الجنات وإن عصيتم دخلتم النار .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الله هو المعبود بحق وما سواه باطل . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٣) يفوضوا أمورهم إليه .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤) إخبار من الله لعباده المؤمنين أنه قد يكون بعض الأزواج وبعض الأولاد أعداء لهم وهم جميعاً لا يشعرون إذ أن عداوتهم هي الافتتان بهم عن الطاعة والقيام بحق الله جل وعلا أو ركوب المعصية من أجلهم فاحذروا من ذلك وإذا وقع منكم شيء من التقصير بسببهم فلا تغفوههم ولكن اعفوا عنهم وتجاوزوا عن خطئهم إن وقع منهم خطأ واغفروا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤) فاقتدوا بربكم . وقال القرطبي : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي ، شكا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جفاء أهله وولده ، فنزلت . ذكره النحاس . وحكاه الطبري عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة " التغابن " كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ ﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورفقوه فقالوا : إلى من تدعنا ؟ فيرق فيقيم . وروى الترمذي عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه

الآية قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلما أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوههم ... قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا يبين وجه العداوة ، فإن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة. انتهى. قال القرطبي : وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدواً كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدواً بهذا المعنى بعينه. وعموم قوله ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية . انتهى

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ امتحان وابتلاء ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٥) ﴿ إن صبرتم على هذا الامتحان والابتلاء ولم يصرفكم عن طاعة الله والقيام بحقه . عن بريدة رضي الله عنه قال: رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحملهما بين يديه ، ثم قال (صدق الله عز وجل) ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما ) .

﴿ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم ( إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه ) ﴿ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ اسمعوا سمع استجابة وقبول ، وأطيعوا بفعل الأوامر واجتناب النواهي ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي أنفقوا من أموالكم ما يكون لكم أجراً ينفعكم عند ربكم فهو خير لأنفسكم أن تنفقوا فيدخر لكم عند ربكم كما قال تعالى ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُثْهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴾ من (٢٠) سورة المزمل وقال تعالى ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ من (٧) سورة الإسراء وقد قيل المراد الزكاة ، وقيل أنفقوا في الجهاد ، وقيل في صدقات النوافل ، والآية عامة فيشمل كل ذلك .

﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١١) الشح والبخل سواء عند أهل اللغة ، لكن علماء الشريعة يفرقون بينهما ، قال ابن عمر: ليس الشحيح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل وإنه لشح ، إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له . وقال السيوطي : أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له : إني أخاف أن أكون قد هلكت قال : وما ذاك قال : إني سمعت الله يقول ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١١) وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء . فقال له ابن مسعود رضي الله عنه : ليس ذاك بالشح ولكنه البخل ولا خير في

البخل وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً . وأخرج الخرائطي في مساوئ الأخلاق عن ابن عمرو قال : الشح أشد من البخل لأن الشحيح يشح على ما في يديه فيحبسه ، ويشح على ما في أيدي الناس حتى يأخذه ، وإن البخل إنما يبخل على ما في يديه . وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ) انتهى .

فتبين بهذا أن الشح أشد من البخل ، وأنه الحرص والطمع على ما عند الغير ، فإن اتبع نفسه شحها وهواها ساقه ذلك إلى ارتكاب المحرمات من أجل الحصول على ما عند الغير ، قال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يشح بما في أيدي الناس ، يجب أن يكون له ما في أيديهم بالحل والحرام لا يقنع . وقال الحسن : النظر إلى المرأة لا يملكها من الشح . وأن وقاه الله شح نفسه لم يرتكب محرماً فكان من المفلحين كما أخبر رب العالمين ، وهذا هو الذي فقهه السلف كما فعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : وكان يطوف بالبيت يقول : اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك ، فقليل له فقال : إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزي ولم أفعل شيئاً . يعني شيئاً محرماً .

وقيل الشح هو البخل بالواجب من الزكوات والنفقات الواجبة ولذا ورد عن علي بن أبي طالب : من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه .

﴿ إِن تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ ﴾ إن تتصدقوا صدقةً من مالٍ حلالٍ بنيةٍ طيبةٍ يجعلها الله بمنزلة القرض له والقرض مردودٌ على صاحبه ويضاعفه الله لكم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ( من تصدق صدقةً من كسبٍ طيبٍ ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها ويربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه ) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل ويعطي عليه الكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الله جل وعلا يعلم ما غاب عن الأنظار وما كانت تشاهده لا يخفى عليه شيء وهو العزيز في سلطانه الحكيم في أفعاله .

من دروس سورة التغابن :

أولاً / من أعظم أسباب عدم قبول الحق : الكبر واحتقار الرسل كما قال تعالى ﴿الْمَرِيَاتُ كُفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

ثانياً / من أسماء يوم القيامة يوم التغابن حيث يظهر المغبون من المغتبط والمغبون الخاسر وهم الكفرة حين يرى الكافر مقعده من الجنة قد أبدله الله به مقعداً من النار فيا لعظم الغيبة ، وقد ينغبن المؤمن المقصر حين يرى ما أعد الله للمقربين من النعيم فيتحسر على تقصيره وعدم اغتنامه وقته كما اغتنمه أولئك فيفوز بالدرجات العالية لكنه غبنه ليس كغبن الكافر فسرعان ما ينغمس فيما أعد الله له من النعيم فينسى أو يرضى ويقنع .

ثالثاً / ما يصيب المؤمن من المصائب فقد كتبها الله عليه فإذا أيقن بذلك اطمأنت نفسه ورضي بالله فلم يجزع ولم يتسخط فعوضه الله خيراً في الدنيا والآخرة ، لكن من جزع وتسخط واعترض على أمر الله خسر وباء بسخط الله ولم يرد تسخطه من القدر شيئاً فخسر الدنيا والآخرة .

رابعاً / قد يكون بعض الأزواج والأولاد فتنة تجعل الإنسان يقصر في حق الله جل وعلا من أجلهم فيمتنع من الزكاة مثلاً خشية أن ينقص عليهم المال مستقبلاً أو يترك الجهاد الواجب خشية أن يموت فيضيعوا من بعده ونحو ذلك ولو أنه توكل على الله لحفظهم الله له ، فليحذر الإنسان أن يقصر في حق الله من أجل أي أحد كائناً من كان فلن يمنعه من الله ولن ينفعوه عند الله إنما ينفعه ما قدمه من صالح العمل وترك السيئات .

خامساً / أن الطمع فيما عند الغير من الدنيا ، وجشع النفس مهلك لصاحبه كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٦)

سادساً / فضل الصدقة وعظيم أجرها عند الله وأن الله يضاعفها لصاحبها كما قال تعالى ﴿إِنْ تَقْرَضُوا أَلَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفْهُ لَكُمْ﴾

## سورة الطلاق مدنية وآياتها (١٢)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة الطلاق

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ روى البخاري في الصحيح أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما طلق امرأته وهي حائض فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ( مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه فتلك العدة كما أمره الله ) يعني يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ﴿وَأَحْضُوا أَلْعَدَّةَ﴾ وهي ثلاث حيض بعد الطهر الذي طلقها فيه فإن تمت ولم يراجعها بانتهائه بينونة صغرى إذا كان قد طلقها تطليقة واحدة أو تطليقتان ، وبينونة كبرى إن كان قد طلقها ثلاث تطليقات ، ولا يحل له مراجعتها ولو في العدة إن كان قد طلقها ثلاث تطليقات حتى تنكح زوجاً غيره بعد انتهاء عدتها منه ، ثم يطلقها الثاني ثم تعد منه حتى تتم عدتها ، فحينئذ يجوز للأول أن يتزوجها بعقد جديد ومهر جديد ، وإن توفي أحدهما وهي في العدة ورث منه الآخر إذ لا تحصل البينونة إلا بانتهاء العدة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه وتحكيم شرعه والرضا بحكمه ، ومن حكمه أن المطلقة لا يجوز إخراجها من بيتها حتى تتم عدتها فقال ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ فجعلها بيوتهن مع أنهن مطلقات ، لأن المطلقة في العدة في حكم الزوجة حتى تنقضي عدتها . ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ من تلقاء أنفسهن حقاً على المطلق مادام له الرجعة عليها . قال عطاء: إن أذن لها أن تعتد في غير بيته فتعتد في بيت أهلها فقد شاركها إذن في الإثم . ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ وهو الزنا البين فحينئذ يجوز إخراجهن من بيوتهن وهو قول مجاهد والحسن والشعبي وابن زيد ، وقيل المراد بالفاحشة البذاءة على أحمائها وهو مروي عن بن عباس ، وقيل المراد النشوز وهو قول قتادة ، وقيل المراد خروجها قبل انقضاء العدة وهو مروي عن عبد الله بن عمر والسدي ، وقيل المراد كل معصية وهو مروي عن بن عباس ورجحه الطبري على عادته في التعميم لأنه يشمل كل هذه الأقوال ، والذي يظهر لي أن المراد الزنا لأنه جريمة متعلقة بالعرض وإنما شرع الزواج منعاً لهذه الجريمة فإذا وجدت ذهب الأمر الذي من أجله شرع الزواج فجاز التفريق بينهما ، وأما ما سوى ذلك مما ذكره فأمور تقع ولا تخدش في العرض فلا توجب تفريقاً بين



الزوجين والله تعالى أعلم . ﴿وَلَا تَحْذَرُوا اللَّهَ﴾ هذه أحكام الله وشرعه بين الزوجين ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ فلا يعمل بأمر الله وحكمه ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بإيقاعها في سخط الرب جل وعلا ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ١ بين الزوجين من المراجعة في العدة والرضا بعد السخط ورجوع المودة بعد المغاضبة .

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا انقضت العدة وهي الثلاث حيض ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ قبل أن تغتسل لطهرها بعد حيضها الثالث ، فإن اغتسلت قبل أن يراجعها ملكت نفسها ولم تحل له إلا بعقد جديد ومهر جديد . وله مراجعتها في العدة بلا عقد ولا مهر جديد بأن يقول راجعتك أو بأن يطأها . فإن راجعها وأمسكها فليوفها حقها من السكنى والنفقة وإحسان العشرة . ﴿أَوْفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وإن اختار الفراق فليفارق بالمعروف من حفظ ما كان بينهما من أسرار وعدم التعرض لأذيتها وليوفي لها ما بقي من مهرها وحقوقها إن كان لها عليه من حق ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ على الرجعة والطلاق فإن ذلك يمنع ما قد يحصل من خصومات في المستقبل . ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي اشهدوا إذا طلب منكم ذلك ، وأدوها عند الطلب ، حفاظاً على الحقوق بينكم . ولا شك أنه يؤجر من فعل ذلك ابتغاء مرضات الله ، ويؤزر من امتنع من ذلك بغير سبب . لأنه خالف أمر الله بإقامة الشهادة . ﴿ذَلِكَ مِمَّا يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ما ذكرنا لكم من الأحكام هي مواعظ تنفع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر في حياته وبعد مماته . ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ٢ من يراقب الله فيما يفعل ويذر يجعل الله له مخرجاً من الأمور التي تتعسر عليه بعد أن ظن أن لا مخرج له منها . قال بن عباس : نجاته من كل كرب في الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً . وروى الطبري بسنده عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننا أنه رادها عليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الحموقة ، ثم يقول : يا ابن عباس يا ابن عباس ، وإن الله عز وجل قال ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ٢ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً ، عصيت ربك وبانت منك امرأتك . انتهى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يأتيه الرزق من حيث لا يتوقع . قال قتادة : من حيث لا يرجو ولا يؤمل . ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ومن يفوض أمره إلى الله فإن الله يكفيه من كل شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي كائن أمره ماضٍ قدره في خلقه رضي الخلق أم لم يرضوا ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ٣ قد جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء والطلاق والعدة وغير ذلك زماناً

وأجلاً مقدراً ينتهي إليه . قال مسروق : أجلاً . وعنه : منتهى . قال الطبراني : قد جعل الله لكل شيء من أحكامه مقدراً وأجلاً معلوماً فلا عذر للعبد في تقصير يقع منه . انتهى .

﴿وَالَّتِي يَسْنَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ لكبر أو مرض ﴿إِنْ ارْتَبَتْ﴾ في الدم النازل منهن بعد انقطاعه هل هو حيض أم استحاضة ولم يتبين . وقيل المراد إن ارتبتم في حكم عدتهن . ورجحه الطبري لأن الخطاب للرجال واضطراب الحيض إنما يعرفه النساء ولو كان المراد اضطراب الحيض لكان الخطاب لهن ولكان اللفظ ( إن ارتبت ) ثم إن اليائسة من المحيض هي التي انقطع حيضها وأما التي في حيضها اضطراب فلا تكون يائسة . ﴿فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ بدل عن ثلاثة قروء في التي تحيض ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ لصغر سن فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً . ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الحوامل انقضاء عدتهن بالوضع . وهذا في المطلقة بالإجماع ، وأما المتوفى عنها زوجها وهي حامل فقل تنقضي عدتها بأبعد الأجلين وهو مروى عن علي بن عباس . وقيل بالوضع وهو قول بن مسعود ، وهو الراجح لما جاء عن أبي سلمة قال جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال : أفنيتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ؟ فقال ابن عباس : آخِرُ الأجلين . قلت أنا ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة أنا مع ابن أخي ، يعني أبا سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريماً إلى أم سلمة يسألهما فقالت قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو السنابل فيمن خطبها . رواه البخاري

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ من يتق الله ييسر الله له أموره كلها ومن ذلك أنه إذا طلق كما أمره الله في العدة طلقة واحدة سهل عليه الرجوع وتيسرت له العودة إلى زوجه ، وأما إن استعجل فطلق في غير العدة ثلاثاً ، لم يتق الله ، ولم يجعل الله له عليها رجعة حتى تنكح زوجاً غيره . وقد روى الطبري بسنده عن مجاهد أن رجلاً سأل بن عباس فقال : إنه طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك وبانت منك امرأتك ، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً .

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ أي الأحكام المتقدمة هي أوامر ربكم وأحكامه أنزلها إليكم لتعملوا بها ، ومن يتق الله فيعمل بطاعته ويحْتَنِبُ معصيته يح مح عنه سيئاته ويشييه أجراً عظيماً .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارِزُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ لما نهي الله الزوج عن إخراج المطلقة من المسكن قبل تمام العدة لم يكلفه ما لا يطبق ولم يلزمه بأن يسكنها في القصور والأبراج والفنادق بل أمره أن يسكنها في المسكن الذي يسكن فيه على قدر استطاعته وطاقته ، ولكن نهاه عن التضيق عليها بالمضارة بالقول والفعل لأجل أن يضطرها للخروج قبل تمام العدة . ومن ذلك أن يسكنها في مسكن ضيق وهو يقدر أن يسكنها في مسكن أوسع منه . ﴿ وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ الزوجة المطلقة الحامل لها النفقة والسكنى حتى تضع حملها ولو كان طلاقها بائناً باتفاق العلماء استناداً إلى هذه الآية ولقول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس ( والله مالك نفقة إلا أن تكوني حاملاً ) ولأن الولد ولده ولا يمكن الإنفاق عليه وهو في بطن أمه إلا بالإنفاق على أمه والقاعدة أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . واتفقوا على أن للمطلقة الرجعية غير الحامل النفقة والسكنى حتى اكتمال العدة . واختلفوا في المطلقة طلاقاً بائناً وهي غير حامل فقال الحنفية لها النفقة والسكنى لعموم الآية ، وقال المالكية والشافعية لها الحق في السكنى دون النفقة فإن الآية ذكرت السكن دون النفقة لغير الحامل وكذلك حديث فاطمة بنت قيس ، وقال الحنابلة والظاهرية ليس لها نفقة ولا سكنى ما لم تكن حاملاً وقالوا الآية تتعلق بالطلاق الرجعي دون البائن واستدلوا بقول فاطمة بنت قيس ( طلقني زوجي ثلاثاً فلم يجعل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنى ولا نفقة ) رواه مسلم ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أجر إرضاعهن أولادكم . وفيه دليل على أن نفقة الأولاد واجبة على الأب دون الأم ، وأن الرضاعة ليست واجبة على الأم ما لم ياب الولد الرضاع من غيرها فحينها يجب عليها إرضاعه حفاظاً على حياته . ﴿ وَاتِمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ اصنعوا المعروف فيما بينكم ومن ذلك أن تقبل الأم أن ترضع ولدها بدون أجر أو بالقليل من الأجر ، ومن ذلك أن لا ينقص الأب من أجر إرضاع الأم شيئاً عن ما هو معروف في قدر أجر الرضاعة بين الناس . ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَ رِئُوسُكُم فَاسْتَزِيعْ لَهُ أُخْرَى ۖ ﴾ (٦) إن لم تتفقوا وعَسَرَ بعضكم على بعض في الشروط فلا مانع من أن يستأجر الرجل مرضعةً لولده تكون أقل ثمناً من أمه . والأم أحق به في ثمن المثل وأقل . ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا ﴾ جعل الله الإنفاق على قدر الطاقة فمن كان ذا سعة فليوسع في العطاء على المرضعة وعلى الولد ، ومن ضيق عليه في الرزق فليعطي على قدر ماله فإن الله لا يكلفه إلا بقدر ما أعطاه من الرزق . ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٧) سيجعل الله له بعد فقره وشدته غنى وسعة . قال مقاتل : من بعد الفقر سعة في الرزق . وقال سفيان : بعد الشدة الرخاء .

ولما أمر الله جل وعلا بهذه الأوامر أراد أن يبين عاقبة عصيان أوامره وأوامر رسله فقال ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي كم من قرية طغت وتجبرت عن طاعة الله ورسله ﴿فَحَاسَبُنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ فحاسبها الله على أعمالها حساباً ليس فيه عفو عن أي معصية . قال بن زيد : الحساب الشديد الذي ليس فيه من العفو شيء . وقال بن عباس : لم ترحم . ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ أي فظيعاً قيل هو عذاب الآخرة والظاهر أن المراد ما وقع عليهم من العذاب في الدنيا لأنه تعالى قال بعد ذلك ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا يعني في الآخرة فتبين أن المراد بالعذاب هاهنا هو عذاب الدنيا . ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ قال البخاري : قال مجاهد ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ جزاء أمرها . انتهى ورواه الطبري عن بن عباس ، وروى عن قتادة وابن زيد قالا : عاقبة أمرها . وعن السدي : عقوبة أمرها . والمعنى واحد . ﴿وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا﴾ أي ما أعقبها أمرها من الكفر والعصيان إلا خسارة الدنيا والآخرة . ثم بين عقوبتهم في الآخرة فقال ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في جهنم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فاحذروا من عقوبة الله يا أهل العقول الذين صدقتم بالله لئلا يصيبكم ما أصاب تلك القرى التي عنت عن أمر ربها ورسله . فإن الله قد أنزل إليكم قرآناً فيه موعظة وذكرى تتعظون بها . فالذكر القران كما قال تعالى ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ سورة الحجر وقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر وقوله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قال الزجاج أي أنزل إليكم ذكراً وأرسل إليكم رسولاً . انتهى وقيل المعنى : قد أنزل الله إليكم ذكراً مع الرسول . لأن الرسول هو الذي أنزل عليه القران وهو الذي يتلوه على الناس وإنما يعرفون القران من طريقه . وهذا هو الذي رجحه الطبري فإنه قال : والصواب من القول في ذلك أن الرسول ترجمة عن الذكر ولذلك نُصِبَ لأنه مردودٌ عليه على البيان عنه والترجمة ، فتأويل الكلام إذن : قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذكراً من الله لكم يذكركم به وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله والعمل بطاعته رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ يقول : مبينات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند الله . انتهى . وقال الطبراني : أي أنزل إليكم كتاباً آتاه رسولاً ليؤدِّيه إليكم . وقيل : معناه : قد أنزل الله إليكم قرآناً وأرسل رسولاً . انتهى وقال الطاهر بن عاشور : وقوله ﴿رَسُولًا﴾ بدل من ﴿ذِكْرًا﴾ بدل اشتمال لأن بين القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ملازمة وملابسة فإن الرسالة تحققت له عند نزول القرآن عليه . انتهى .

وقوله ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي يقرأ عليكم القرآن الذي قد بينه الله جل وعلا فجعله واضحاً بيناً كقوله تعالى ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من (١٧) سورة الحديد قال بن كثير : أي في حال كونها بينة واضحة جلية . انتهى . قال الطبري : مبينات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند الله . انتهى . وقيل تبين الأوامر والنواهي والحلال والحرام . قال القرطبي : قراءة العامة بفتح الياء أي بينها الله . وقرا ابن عامر وحفص وحمة والكسائي بكسرها ، أي يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام . والاولى قراءة ابن عباس واختيار أبي عبيد وأبي حاتم . انتهى وقال الرازي : مُبَيِّنَاتٍ بالخفض والنصب ، والآيات هي الحجج فبالخفض لأنها تبين الأمر والنهي والحلال والحرام ، ومن نصب يريد أنه تعالى أوضح آياته وبينها أنها من عنده . انتهى . ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والطاعة . ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ثم بين جزاء من آمن به وعمل الصالحات أنه سيدخله بساتين تجري من تحتها الأنهار لا نزول عنهم ولا يزولون عنها بل يبقون فيها متنعمين أبداً ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (١١) في الجنة حيث الرزق الدار والعيش القار والزوجة الحسنة والصحة الدائمة والشباب المستمر والنعيم المقيم .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) ثم بين تعالى كمال قدرته حيث خلق سبع سموات وسبع أراضين يتنزل أمره من السماوات السبع إلى الأرضين السبع يعني ما يقضيه ويقدره عليها وعلى أهلها من ثبات وتشقق ومن مطر ونبات وريح ورزق وحياة وموت وغنى وفقر ونحو ذلك ، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته وسعة علمه . قال قتادة: في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه تبارك وتعالى .

مسألة : قال جمهور المفسرين ورجحه القرطبي أن الأراضين السبع طباقاً كالسماوات بعضها فوق بعض . وقال الضحاك: الأراضين السبع مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق . وذكر بعضهم أنها طبقات الأرض المعروفة وهي سطح الأرض ثم القشرة الأرضية ثم طبقة الضغط الأرضي ثم طبقة الوشاح الأعلى ثم الأدنى ثم النواة الخارجية ثم الداخلية فهذه سبع طبقات وأنكر ذلك الألوسي فإنه قال في تفسيره روح المعاني : وقال الضحاك : هي في كونها سبعاً بعضها فوق بعض لا في كونها كذلك مع وجود مسافة بين أرض وأرض واختاره بعضهم زاعماً أن المراد بماتيك السبع طبقة التراب الصرفة المجاورة للمركز والطبقة الطينية والطبقة المعدنية التي يتكون فيها المعادن والطبقة الممتزجة بغيرها المنكشفة التي هي مسكن الإنسان ونحوه من الحيوان وفيها ينبت النبات وطبقة الأدخنة والطبقة الزمهريرية وطبقة النسيم الرقيق جداً ولا يخفى

أنه أشبه شيء بالهذيان . انتهى والأظهر عندي أن بعضها في باطن بعض دون التصاق كالسماوات فعلى القول بأن السماوات كروية فمعناه أن بعضها داخل بعض فأعلاها السماء السابعة ثم السادسة وهكذا لكنها غير ملتصقة بل طباق بعضها فوق بعض فكذلك الأراضين السبع بعضها فوق بعض محيطتها بها فأعلاها هذه الأرض التي نحن عليها ثم الثانية في داخلها قد أحاطت بها الأرض العليا وهكذا البقية ونقول ذلك لما جاء في الصحيح عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ( من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طوقه من سبع أراضين ) ولولا أن بعضها في باطن بعض ما ألزم بحملها فإن ربك لا يظلم مثقال ذرة . ولا يلزم بأن يكون المراد بها هذه الطبقات بل المعنى المتبادر إلى الذهن من هذه الآية أن لكل أرضٍ من هذه الأراض السبع مثل هذه الطبقات بل قد ورد عن بعض السلف أن في كل أرضٍ مخلوقات مثل مخلوقات الأرض الأخرى ففي كل أرض أنسٌ وجان وحيوان ونبات ونحو ذلك مما هو موجودٌ في هذه الأرض وهذا لم يثبت فيه حديث مرفوع بل وشكك بعض المفسرين في ثبوته عن السلف .

وذكر الرازي احتمالاً أنها الأقاليم السبع أي القارات السبع . وصرح بذلك بن عاشور فقال : وعلى مجازة تفسير الجمهور من المماثلة في عدد السبع ، فيجوز أن يقال : إن السبع سبع قطع واسعة من سطح الأرض يفصل بينها البحار نسميها القارات ولكن لا نعني بهذه التسمية المعنى الاصطلاحي في كتب الجغرافيا القديمة أو الحديثة بل هي قارات طبيعية كان يتعذر وصول سكان بعضها إلى بعضها الآخر في الأزمان التي لم يكن فيها تنقل بحري وفيما بعدها مما كان ركوب البحر فيها مهولاً . وهي أن آسيا مع أوروبا قارة وإفريقيا قارة ، وأستراليا قارة ، وأمريكا الشمالية قارة ، وأمريكا الجنوبية قارة ، وجرولندة في الشمال ، والقارة القطبية الجنوبية . ولا التفات إلى الأجزاء المتفرقة من الأرض في البحار . انتهى ولا شك أن هذا غير صحيح فإنه يخالف المعنى المتبادر من الآية وهو أنها أراضٍ كالسماوات مستقلة وكروية . قال بن كثير : ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النَّجَّة ، وأغرق في النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند . انتهى

وأنكر الزمخشري كما نقله القاسمي عنه أن تكون الأرض سبعاً وتؤول الآية بتأويلاتٍ باطلة قال المعنى مثلهن في التركيب والخلقة يعني من المادة التي خلقت منها السماوات وأنها كروية كالسماوات وأنها من الكواكب السيارة ونحو ذلك وذكر أيضاً أن الناس يقولون : اتخذت لي سبعة أصدقاء ولي من بني فلان صديق مثلهم . يعني مثلهم في الصداقة . قال فتقدير الآية : وبعض الأرض مثلهن في مادتها وعناصرها .

ولا شك أن هذا القول باطل يخالف ما فهمه السلف من معنى الآية وأنها دالة على العدد وكون الأراضين سبع كالسماوات ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح وعلماء الأمة ولا عبرة بقول هذا المعتزلي

ولا بقول أحد بعد نصوص الوحيين فأما من الكتاب فهذه الآية واضحة في أنها تدل على العدد والسلف مجمعون على ذلك وإنما اختلافهم هل هي طباق كالسماوات أو هي متداخلة وأما من السنة فحديث سعيد بن زيد المتقدم في صحيح مسلم وروي عن أبي هريرة وعائشة نحوه .

#### من دروس سورة الطلاق

أولاً / أن الطلاق ليس لعبة يتلاعب بها بل هو حكم شرعي له شروط ومحاذير يجب مراعاتها كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ حُدِّدُوا لِلَّهِ وَمَنْ يَعْتَدِ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وبعض الحمقى من الرجال كلما غضب ولو بسبب تافه استخدم الطلاق سلاحاً يرمي به الزوجة ثم إذا وقع الطلاق البائن ندم وأخذ يبحث عن الفتاوى التي تجيز له العود ، فلم يتق الله أولاً حين تلاعب بحكم شرعي ، ولا آخراً حين جلس يتتبع الرخص والفتاوى الشاذة .

ثانياً / في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله يبلغ أمره فـد جعل الله لكل شئ قـدراً (٣) الحث على الصبر وعدم استعجال النتائج فإن أمر الله الذي كتبه على نفسه من إيجاد مخرج من الشدة لمن اتقاه ورزقه من حيث لا يحتسب وكفاية من توكل عليه سيمضي وهو كائن لا محالة ولكن قد يتأخر ابتلاء للعبد ليرى مدى صبره وتصديقه بموعود الله ولكن النهاية الفرج وزوال الشدة فإن الله قد جعل لكل شئ زماناً ينتهي إليه ومن ذلك البلاء والشدة فليصبر العبد وأنه مأجور على صبره هذا وتصديقه بموعود الله من أعظم العبادات القلبية التي يتقرب بها إلى الله جل وعلا .

ثالثاً / أن تقوى الله فيها الخير كله فهي سبب لتفريج الكرب كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (٢) وهي سبب للرزق كما قال تعالى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وهي سبب لتيسير الأمور كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (٤) وهي سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ (٥) فهي سبب لكل خير في الدنيا والآخرة رابعاً / أن الإسلام قد حفظ للمرأة كرامتها وعزتها ومنع من التعدي عليها وهضم حقوقها فمنع من التلاعب بالطلاق وأوجب لها السكنى والنفقة والميراث ما دامت في العدة وجعلها الأولى بإرضاع طفلها مع أخذ الأجرة على إرضاعه إن كانت مطلقة ، وغير ذلك من الحقوق الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها لكن فيه الرد على أولئك الذين ينادون بحرية المرأة وتحللها من الدين وما ذلك إلا لتكون فريسة سهلة لهم.

## سورة التحريم مدنية وآياتها (١٢)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### تفسير سورة التحريم

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَجِكَ ۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فواطيت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغاير إني أجد منك ريح مغاير . قال ( لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً ) رواه البخاري وعن عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يخبر أنه سمع عائشة تخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغاير أكلت مغاير فدخل على إحداها فقالت له ذلك فقال ( بل شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ولن أعود فنزلت ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِنْ تُؤَاوَا إِلَى اللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذَا أَسَرَ الْتَيْئُ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله ( بل شربت عسلاً ) متفق عليه

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء ويحب العسل وكان إذا صلى العصر أجاز على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت رسول الله منه شربة فقلت : أما والله لنحتالن له ، فذكرت ذلك لسودة قلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغاير فإنه سيقول لا . فقولي له : ما هذه الريح وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشد عليه أن توجد منه الريح ، فإنه سيقول سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرت نخله العرط . وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ، فلما دخل على سودة قالت تقول سودة : والذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك . فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت يا رسول الله أكلت مغاير ؟ قال ( لا ) قالت : فما هذه الريح ؟ قال ( سقتني حفصة شربة عسل ) قالت : جرت نخله العرط . فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك . فلما دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال ( لا حاجة لي به ) قالت : تقول سودة : سبحان الله والله لقد حرمناه . قالت : قلت لها اسكتي . متفق عليه



قال الأزهري في تهذيب اللغة : المغافير : صمغ يسيل من شجر العرفط خلّو ، غير أن رائحته ليست بطيبة والجُرْس : الأكل . انتهى وقال في تاج العروس : المغافر والمغافير : المغاثير ، وهو صمغ شبيه بالناطف ينضحه العُرْفُط فيوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب . قال : وقال ابن الأثير : المغافيرُ : صَمْعٌ يَسِيلُ من العُرْفُطِ ، غير أنَّ رائحته ليست بِطَيِّبَةٍ . انتهى

وعن عبيد بن حنين أنه سمع بن عباس رضي الله عنهما يحدث أنه قال مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آيةٍ فما أستطيع هيبَةً له حتى خرج حاجاً فخرجت معه فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجةٍ له قال فوقفت له حتى فرغ سرت معه فقلت يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه فقال : تلك حفصة وعائشة قال فقلت والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبَةً لك قال فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم فأسألكي فإن كان لي علمٌ خبرتك به . قال ثم قال عمر والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم قال فبينما أنا في أمرٍ أتأمره إذ قالت امرأتي لو صنعت كذا وكذا . قال : فقلت لها مالك ولما هاهنا فيما تكلفك في أمرٍ أريده . فقالت لي عجباً لك يا ابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها يا بنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلت تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسننها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها - يريد عائشة - قال : ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها فقالت أم سلمة عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبغني أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر وإذا غاب كنت أنا آتية بالخبر ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا فقد امتلأت صدورنا منه فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال افتح افتح فقلت جاء الغساني فقال بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت رغم أنف حفصة وعائشة فأخذت ثوبي فأخرج حتى جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشربةٍ له يرقى عليها بعجلة وغلامٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسود على رأس الدرجة فقلت له قل هذا عمر بن الخطاب فأذن لي - قال عمر - فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لعلّى حصيرٍ ما بينه وبينه شيءٌ وتحت رأسه وسادةٌ من

أدم حشوها ليف وإن عند رجله قرظاً مصبوباً وعند رأسه أهبٌ معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال ما يبكيك فقلت : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله فقال ( أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ) متفق عليه .

قال السيوطي في الدر : أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسندٍ صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب من شرابٍ عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ قالت : كانت عندي عكة من عسل أبيض فكان النبي صلى الله عليه وسلم يلعب منها وكان يحبسها فقالت له عائشة : نلها تجرش عرفطاً فحرمها فنزلت هذه الآية وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن عبد الله بن عتيبة أنه سئل أي شيء حرم النبي صلى الله عليه وسلم قال : عكة من عسل. وأخرج النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً فأنزل الله هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية. وأخرج الترمذي والطبراني بسند حسن صحيح عن ابن عباس قال : نزلت ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الآية في سريته. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : من المرأتان اللتان تظاهرتا قال : عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن مارية أم إبراهيم القبطية أصابها النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في يومها فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت إلي شيئاً ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي داري وعلى فراشي فقال ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها قالت : بلى فحرمها وقال : لا تذكرني ذلك لأحد فذكرته لعائشة رضي الله عنها فأظهره الله عليه فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عنها فأظهر الله يمينه وأصاب جاريته. وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ قال : حرم سريته. وأخرج ابن سعد ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت عائشة وحفصة متحابتين فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة وكان اليوم الذي يأتي فيه حفصة فوجدتهما

في بيتها فجعلت تنتظر خروجها وغارت غيرة شديدة فأخرج النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاريته ودخلت حفصة فقالت : قد رأيت من كان عندك والله لقد سؤتي فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : والله لأرضينك وإني مسر إليك سرّاً فاحفظيه قالت : ما هو قال : إني أشهدك أن سريتي هذه علي حرام رضا فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرت إليها أن أبشري إن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حرم عليه فتاته فلما أخبرت بسر النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أظهر الله النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ذكر عند عمر بن الخطاب ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ قال : إنما كان ذلك في حفصة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وجدت حفصة رضي الله عنها مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم ولده مارية أم إبراهيم فحرم أم ولده لحفصة رضي الله عنها وأمرها أن تكتم ذلك فأسرته إلى عائشة رضي الله عنها فذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ فأمره الله بكفارة يمينه.

وبناءً على اختلاف هذه الروايات فقد اختلفوا في سبب نزول الآيات وماذا حرّم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه على ثلاثة أقوال :

الأول / وهو قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها واختيار القرطبي وابن كثير والخازن أنه العسل الذي شربه عند إحدى زوجاته والراجح ما في الصحيحين أنها زينب بنت جحش أو حفصة والراجح أنها زينب لموافقة ذلك لما في الصحيحين أيضاً من حديث ابن عباس عن عمر أن المتظاهرتين عائشة وحفصة ولموافقتها قبل ذلك لمنطوق الآية أن التظاهر كان من اثنتين لا من ثلاث والذي في قصة شربه العسل عند حفصة أن التظاهر وقع من ثلاث عائشة وسودة وصفية . وأما بقية الروايات فهي شاذة لمخالفتها لما في الصحيحين . وبعضهم يرى تكرار القصة وهو مستبعد لأن الحيلة قد تنطلي على الشخص أول مرة لكن مع تكررها نفسها فلا تنطلي عليه مرةً أخرى والعلم عند الله تعالى .

وممن يرى تكرار القصة بن حجر فإنه قال في الفتح : ذكر المصنف حديث عائشة في قصة شرب النبي صلى الله عليه وسلم العسل عند بعض نسائه فأورده من وجهين أحدهما من طريق عبيد بن عمير عن عائشة وفيه أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش والثاني من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وفيه أن شرب العسل كان عند حفصة بنت عمر فهذا ما في الصحيحين وأخرج ابن مردويه من طريق بن أبي مليكة عن بن عباس أن شرب العسل كان عند سودة وأن عائشة وحفصة هما اللتان تواطأتا على وفق ما في رواية عبيد بن عمير وأن اختلفا في صاحبة العسل ، وطريق الجمع بين هذا الاختلاف

الحمل على التعدد فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد فإن جنح إلى الترجيح فرواية عبيد بن عمير أثبت لموافقة بن عباس لها على أن المتظاهرتين حفصة وعائشة على ما تقدم في التفسير وفي الطلاق من جزم عمر بذلك فلو كانت حفصة صاحبة العسل لم تقرن في التظاهر بعائشة ، لكن يمكن تعدد القصة في شرب العسل وتحريمه واختصاص النزول بالقصة التي فيها أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان ، ويمكن أن تكون القصة التي وقع فيها شرب العسل عند حفصة كانت سابقة ويؤيد هذا الحمل أنه لم يقع في طريق هشام بن عروة التي فيها أن شرب العسل كان عند حفصة تعرض للآية ولا لذكر سبب النزول . والراجح أيضاً أن صاحبة العسل زينب لا سودة لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق بن أبي مليكة بكثير ولا جائز أن تتحد بطريق هشام بن عروة لأن فيها أن سودة كانت ممن وافق عائشة على قولها أجد ريح مغاير . ويرجح أيضاً ما مضى في كتاب الهبة عن عائشة أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن حزينين أنا وسودة وحفصة وصفية في حزب ، وزينب بنت جحش وأم سلمة والباقيات في حزب . فهذا يرجح أن زينب هي صاحبة العسل ولهذا غارت عائشة منها لكونها من غير حزبيها والله أعلم . وهذا أولي من جزم الداودي بأن تسمية التي شربت العسل حفصة غلط وإنما هي صفية بنت حيي أو زينب بنت جحش وممن جنح إلى الترجيح عياض ومنه تلقف القرطبي وكذا نقله النووي عن عياض وأقره فقال عياض رواية عبيد بن عمير أولي لموافقتها ظاهر كتاب الله لأن فيه ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ فهما اثنتان لا أكثر ولحديث بن عباس عن عمر قال فكأن الأسماء انقلبت على راوي الرواية الأخرى وتعقب الكرماني مقالة عياض فأجاد فقال متى جوزنا هذا ارتفع الوثوق بأكثر الروايات وقال القرطبي الرواية التي فيها أن المتظاهرات عائشة وسودة وصفية ليست بصحيحه لأنها مخالفة للتلاوة لمجيئها بلفظ خطاب الإثنتين ولو كانت كذلك لجاءت بخطاب جماعة المؤنث ثم نقل عن الأصيلي وغيره أن رواية عبيد بن عمير أصح وأولى . وما المانع أن تكون قصة حفصة سابقة فلما قيل له ما قيل ترك الشرب من غير تصريح بتحريم ولم ينزل في ذلك شيء ثم لما شرب في بيت زينب تظاهرت عائشة وحفصة على ذلك القول فحرم حينئذ العسل فنزلت الآية . قال : ووجدت لقصة شرب العسل عند حفصة شاهداً في تفسير بن مردويه من طريق يزيد بن رومان عن بن عباس ورواته لا بأس بهم وقد أشرت إلى غالب ألفاظه ووقع في تفسير السدي أن شرب العسل كان عند أم سلمة أخرجه الطبري وغيره وهو مرجوح لإرساله وشذوذه والله أعلم . انتهى .

القول الثاني / أنها جاريته وهي مارية القبطية رضي الله عنها وهو قول عمر وابنه وأنس وابن عباس والشعبي وقتادة ومسروق وزيد بن أسلم ورجحه الخطابي وابن الجوزي وابن حجر والقاسمي لما ورد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله

عز وجل ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية . رواه النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه وصحح إسناده الألباني وتقدمت الروايات أنها مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس قال ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ نزلت هذه في سريته . قال في مجمع الزوائد : رواه البزار بإسنادين والطبراني ورجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم وهو ثقة . انتهى . وعند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا حَرَّمَ الرجل عليه امرأته فهي يمين يُكْفَرُهَا وقال ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ من ( ٢١ ) سورة الأحزاب فكأنه يشير إلى هذه القصة . وعند ابن كثير : أن الهيثم بن كليب أخرج في مسنده عن ابن عمر عن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة ( لا تخبري أحداً ، وإن أم إبراهيم علي حرام ) فقالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال ( فوالله لا أقر بها ) قال فلم يقر بها حتى أخبرت عائشة ، قال فأنزل الله تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَنِكُمْ﴾ قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج انتهى . ويرجح هذا القول قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ والعسل ليس في شربه سر بخلاف وطء الأمة قال بن بطل : لعل القصة كانتا جميعاً في وقتين مختلفين ، غير أن أمر الجارية في هذا الموضوع أشبه لقوله تعالى ﴿تَبَنَّى مَرْضَاتٍ أَزْوَاجَكَ﴾ ولقوله تعالى ﴿وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ فكان ذلك في الأمة أشبه لأن الرجل يغشى أمته في ستر ، ولا يشرب العسل في ستر ، وتحريم الأمة فيه مرضاة لمن ، وتحريم الشراب إنما حرمه للرأحة . انتهى وقال في عمدة القاري : قال الخطابي الأكثر على أن الآية نزلت في تحريم مارية القبطية حين حرمها على نفسه وقال لحفصة لا تخبري عائشة فلم تكتم السر وأخبرتها ففي ذلك نزل ﴿وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ . انتهى

القول الثالث / أنها نزلت للسببين جميعاً وهو تحريم العسل وتحريم الجارية وهو قول بن بطل في شرحه للبخاري وقال الكشميري في شرحه للبخاري : واختلف في شأن نزولها فعند النسائي أنها نزلت على تحريم مارية وعند البخاري على تحريم العسل . ورجح الحافظ ههنا النسائي على البخاري ، وذهب جماعة إلى أن القصص فيه متقاربة ونزلت السورة بعدها . انتهى . وقال العلامة صديق خان في نيل المرام : والجمع ممكن بوقوع القصة قصص العسل وقصة مارية وأن القرآن نزل فيهما جميعاً . انتهى وقال الشوكاني : فهذان سببان صحيحان لنزول الآية والجمع ممكن بوقوع القصة قصص العسل ، وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً . انتهى . ويمكن أن يكون في قوله تعالى ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ دليلاً لذلك فلعلة ذكر لحفصة أحد الأمرين وأعرض عن الآخر . قال في عون المعبود : أي أعلم حفصة ببعض الحث وأخبرها

ببعض ما كان منها ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي لم يعرفها إياه ولم يخبرها به تكريماً قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام . والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية أو تحريم العسل وأعرض عن بعض . انتهى وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحفصة ( إن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكرٍ إذا أنا مت ) فأخبرت حفصة عائشة بهذا الأمر وبأمر الجارية فعاتبها على إخبارها عائشة بأمر الجارية ولم يعاتبها على إخبارها إياها بالإمرة لأبويهما قال بن حجر في الفتح : أخرج بن مردويه من طريق الضحاك عن بن عباس قال دخلت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم بيته فوجدت معه مارية فقال لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة أن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكرٍ إذا أنا مت فذهبت إلى عائشة فأخبرتها فقالت له عائشة ذلك والتمست منه أن يحرم مارية فحرمها ثم جاء إلى حفصة فقال أمرتك الا تخبري عائشة فأخبرتها فعاتبها على ذلك ولم يعاتبها على أمر الخلافة فلهذا قال الله تعالى ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وأخرج الطبراني في الأوسط وفي عشرة النساء عن أبي هريرة نحوه بتمامه وفي كل منهما ضعف . انتهى .

قال بن حجر : والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهن كما سيأتي ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها ويؤيده شمول الحلف للجميع ولو كان مثلاً في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة . انتهى

وقال في عون المعبود : قال بن كثير : والصحيح أنه كان في تحريمه العسل . وقال الخطابي : الأكثر على أن الآية نزلت في تحريم مارية حين حرّمها على نفسه . ورجحه في فتح الباري بأحاديث عن سعيد بن منصور والضياء في المختارة والطبراني في عشرة النساء وابن مردويه والنسائي ولفظه عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به حفصة وعائشة رضي الله عنهما حتى حرّمها فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ كذا قال القسطلاني ولكن قال الخطابي في معالم السنن في هذا الحديث دليل على أن يمين النبي صلى الله عليه وسلم إنما وقعت في تحريم العسل لا في تحريم أم ولده مارية القبطية كما زعمه بعض الناس . انتهى . قال الخازن : قال العلماء الصحيح في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح . قال النسائي : إسناده حديث عائشة في العسل جيد صحيح غاية . انتهى

قلت : قول الخازن : لم تأت قصة مارية من طريق صحيح . غير صحيح فقد صحح إسناده النسائي بن حجر والصنعاني والألباني وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأقره الذهبي

كما نقله الشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول . ولم أجد من أنكر قصة تحريم مارية حتى ممن يرجح أن سبب نزول الآيات تحريم العسل غير الخازن . قال بن كثير وهو ممن يرجح أن سبب نزول الآيات تحريم العسل : وقد يقال: إنهما واقعتان ، ولا بُدَّ في ذلك ، إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر والله أعلم . انتهى

وما أدري ما المانع عنده من كون الآيات نزلت بالسببين جميعاً فيحتمل أنهما وقعتا في وقتٍ متقارب فعاتب الله جل وعلا نبيه بسبب تحريمه ما أحل له من شرب العسل ووطء الجارية لأجل مرضاة أزواجه ويشهد لذلك قوله ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ فهناك أكثر من أمرٍ وقع أخبرت به حفصة عائشة فعاتبها النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ما أخبرت به عائشة ولم يعاتبها على البعض الآخر والله تعالى أعلم .

قال الأستاذ أحمد الشرقاوي في اختلاف المفسرين: وقصارى ما يمكن قوله : يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد شرب عسلاً عند زينب ، وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرم العسل واتفق له صلى الله عليه وسلم قُبِيلَ ذلك أو بُعِيدَهُ أن وطئ جاريته مارية في بيتها في يومها على فراشها فحرم مارية وقال لحفصة ما قال تطيباً لحاظرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القضيتين فاقصر بعض الرواة علي إحداهما ، والبعض الآخر علي نقل الأخرى ، وقال كلٌ : فأنزل الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إلى آخر الآيات . انتهى

ومعنى الآية ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ من شرب العسل ووطء الجارية ﴿ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ تطلب بذلك رضا زوجاتك ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال الألوسي في روح المعاني : فيه تعظيم لشأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يعد كالذنب وإن لم يكن في نفسه كذلك ، وأن عتابه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس إلا لمزيد الاعتناء به . انتهى وقد استنبط الزمخشري بفهمه الخاطيء أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع في زلةٍ وأن الله غفر له هذه الزلة ورحمه . وقد أنكر العلماء عليه ذلك وعدوا ذلك استنقاصاً من مقام النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لم يفهم الفرق بين اعتقاد تحريم الحلال والذي هو كفر ، وبين الامتناع من فعل بعض الحلال لمصلحةٍ ما كالذي يمتنع عن الحلوى مثلاً خشية أن يصاب بمرض ارتفاع السكر فيقول : والله لا أكل الحلوى أبداً . فمثل هذا لا يقال أنه زلٌ لأنه لم يعتقد تحريم الحلوى وإنما امتنع عنها لمصلحةٍ يراها ، وهذا لا يعد ذنباً . فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن عسل زينب وعن قربان أمته مارية لمصلحةٍ يراها وهي رضا زوجاته . قال الألوسي : وقد زل الزمخشري هاهنا كعادته فزعم أن ما وقع من تحريم الحلال المحذور لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام

وقد شن ابن المنير في الانتصاف الغارة في التشنيع عليه فقال ما حاصله : إن ما أطلقه في حقه صلى الله تعالى عليه وسلم تقول وافتراء والنبي عليه الصلاة والسلام منه براء ، وذلك أن تحريم الحلال على وجهين : الأول اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل في الحرام محذور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلاً ، والثاني الامتناع من الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان ترك المباح والامتناع منه غير مباح لاستحالت حقيقة الحلال وما وقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من هذا النوع وإنما عاتبه الله تعالى عليه رفقا به وتنبهها بقدره وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به . انتهى

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) لأنه صلى الله عليه وسلم حلف ألا يشرب العسل وحلف ألا يقرب جاريته فبين الله جل وعلا لنبيه أنه يجوز له أن يعود عن حلفه بأن يكفر كفارة اليمين التي بين الله جل وعلا حكمها في سورة المائدة وهذا دليل على أن سورة المائدة نزلت قبل سورة التحريم .

تنبيه : هناك من العلماء من فرق بين تحريم الجارية وبين تحريم الزوجة فتحريم الجارية يكفي فيه لمن أراد الرجوع كفارة اليمين وأما تحريم الزوجة فلا بد فيه من كفارة الظهار كما في سورة المجادلة . قال الشنقيطي في أضواء البيان : الفرق بين تحريم الجارية والزوجة ظاهر لأن آية ﴿ لِمَ تَحْرِمُ ﴾ دلت على أن تحريم الجارية لا يحرمها ولا يكون ظهاراً . وآية ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ الآية دلت على أن تحريم الزوجة تلزم فيه كفارة الظهار المنصوص عليها في المجادلة لأن معنى يظاهرون من نسائهم على جميع القراءات هو أن يقول أحدهم لامرأته : أنت علي كظهر أمي . وهذا لا خلاف فيه ، وقوله : أنت علي كظهر أمي معناه : أنت علي حرام كما تقدم إيضاحه ، وعلى هذا فقد دلت آية التحريم على حكم تحريم الأمة ، وآية المجادلة على حكم تحريم الزوجة ، وهما حكمان متغايران كما ترى ومعلوم أن ابن عباس لم يقل بالفرق بينهما بل قال : إن حكم تحريم الزوجة كحكم تحريم الجارية المنصوص في آية التحريم ونحن نقول إن آية الظهار تدل بفحواها على أن تحريم الزوجة ظهار لأن ( أنت علي كظهر أمي ) و ( أنت علي حرام ) معناهما واحد كما لا يخفى وعلى هذا الذي ذكرنا فلا يصح الظهار من الأمة وإنما يلزم في تحريمها بظهار أو بصريح التحريم ، كفارة يمين أو الاستغفار كما تقدم ، وهذا أقرب لظاهر القرآن وإن كان كثيراً من العلماء على خلافه . انتهى



﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ۝﴾ قال بن الجوزي في كشف مشكل الصحيحين : يعني بها حفصة من غير خلاف وفيما أسر إليها ثلاثة أقوال أحدها تحريم مارية رواه العوفي عن ابن عباس والثاني أنه قال أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس والثالث أنه قال إن أبا بكر خليفتي من بعدي قاله ميمون بن مهران . انتهى وفي الحديث المتفق عليه عن عبيد بن عمير عن عائشة وفيه ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله ( بل شربت عسلاً ) فهذه أربعة أقوال ربما كان المراد جميعها أو بعضها ولا فائدة من التحديد وإلا لذكره الله جل وعلا لنا وإنما المراد بيان ما وقع في بيت النبوة وأنه كسائر البيوت يحصل فيه بعض المشاكل الزوجية وهو درس لمن وقع في مشاكل زوجية أن يصبر ويحتسب ويعلم أن من كان خيراً منه وهو النبي صلى الله عليه وسلم قد وقعت له بعض المشاكل مع زوجاته فعالجها بالصبر والصفح . وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أي نبأت حفصة عائشة وأفشت سر رسول الله لها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي اطلع الله جل وعلا نبيه على ما كان من أمر زوجته وإفشاءها لسره ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ ذكر لها بعض ما أخبرت به عائشة وترك بعضه فلم يعاتبها فيه وهذا من فعل الكرام التغاضي عن بعض الكلام والأفعال التي قيلت أو فعلت ولا طائل من وراء ذكرها إلا المزيد من المشاكل والخلافات . ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ۝﴾ فلما أخبرها بما كان منها من إفشاء السر قالت من أخبرك أن هذا وقع مني قال أخبرني العليم بما يكون في الوجود ، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها وما يسر عباده وما يظهرون وما كان وما سيكون وهو الله جل وعلا . قال بن زيد : لم تشك أن صاحبها أخبرت عنها . يريد وقع في قلبها ذلك ، حتى بين لها النبي صلى الله عليه وسلم أن الذي أخبره هو الله جل وعلا .

﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما أي وقعتما في ذنب يلزم منه التوبة . وهو إيداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى حرّم على نفسه ما كان حلالاً له بسببكما . قال الطبري : مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته أو تحريم ما كان له حلالاً مما حرّمه على نفسه . انتهى . قال البخاري : صَعَوْتُ وَأَصْغَيْتُ : مَلْتُ . لِنَصْعَى : لَتَمِيلَ . انتهى وعند مسلم : قَالَ قَتَادَةُ : صَعَتْ قُلُوبُكُمَا مَالَتْ قُلُوبُكُمَا . انتهى قال القرطبي : أي زاغت ومالت عن الحق . وهو أنهما أحببتا ما كره النبي صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته واجتناب العسل ، وكان عليه السلام يحب العسل والنساء . قال ابن زيد : مالت قلوبكما بأن سرهما أن

يحتبس عن أم ولده ، فسرهما ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : فقد مالت قلوبكما إلى التوبة .  
 وليس قوله ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ جزاءً للشرط ، لأن هذا الصغو كان سابقاً ، فجواب الشرط محذوفٌ  
 للعلم به . أي إن تتوبا كان خيراً لكما ، إذ قد صغت قلوبكما . انتهى ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تتعاونا  
 على أذيته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وليه وناصره ومؤيده وكذلك جبريل يؤيده  
 وينصره وكذلك صالح المؤمنين أي خيارهم يؤيدونه وينصرونه وقيل أي من لم يكن منافقاً وقيل عني به  
 أبو بكر وعمر خاصة لأنهما أبوان لهما . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤١ ﴾ أي أعوان ومناصرين أي  
 لا تظنان أنه وحده حتى تستطيعان فعل ما يؤذيه فإن معه كل هؤلاء وكفى بالله معيناً ومؤيداً ونصيراً .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِثْلُكَ مُؤْمِنَاتٍ فَعِنْتِ قِصَّةٌ مِّمَّنْ فِي الْكِتَابِ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ ۝٤٢ ﴾  
 ٥٠ عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر رضي الله عنه اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في  
 الغيرة عليه فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت هذه الآية . رواه البخاري .  
 وهذا من باب التهديد لهن لا أن في الوجود من هو خير منهن كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا  
 غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ من (٣٨) سورة محمد ولا أمة خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .  
 ولكن هذا من باب التهديد والوعيد وقد علم تعالى أنهم لن يتولوا وأنهن لن يكررن ما فعلن وأن نبيه صلى  
 الله عليه وسلم لن يطلقهن . قال الطبري : واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ أَنْ يُبَدِّلَهُ ﴾ فقرأ ذلك بعض  
 قراء مكة والمدينة والبصرة بتشديد الدال ( يبدله أزواجاً ) من التبديل . وقرأه عامة قراء الكوفة ( يُبَدِّلُهُ )  
 بتخفيف الدال من الإبدال . والصواب من القول أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى فبأيهما قرأ القارئ  
 فمصيب . انتهى وقوله ﴿ فَعِنْتِ ﴾ قال قتادة وابن زيد : مطيعات . قال البغوي ﴿ فَعِنْتِ ﴾ طائعات  
 وقيل : داعيات . وقيل : مصليات . انتهى وقوله ﴿ سَيَحْنَبُ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة  
 والضحاك : صائمات . وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن : مهاجرات . قال القرطبي : قال زيد : وليس  
 في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلا الهجرة . والسياحة الجولان في الأرض . وقال الفراء والقتبي  
 وغيرهما : سمي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام . وقيل : ذاهبات  
 في طاعة الله عز وجل ، من ساح الماء إذا ذهب . انتهى وقال ابن كثير ﴿ سَيَحْنَبُ ﴾ أي : صائمات ، قاله  
 أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب القرظي  
 وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو مالك وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي  
 وغيرهم . وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله ﴿ السَّيِّئُ خُبْرٌ ﴾ من سورة ( براءة ) ولفظه ( سياحة هذه

(الأمة الصيام) وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ﴿سَيَحْتَبِئُ﴾ أي : مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن ﴿الْمُتَحَبِّطُونَ﴾ أي : المهاجرون. والقول الأول أولى ، والله أعلم . انتهى

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وذلك بأن تلتزموا بطاعة الله وتحثوا أهليكم على ذلك وتجتنبوا محارم الله وتحثوا أهليكم على ذلك حتى تنجو أنتم وهم من نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة تستعر بهم حين يلقون فيها ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ خزنتها ملائكة غلاظ لا رحمة في قلوبهم على الكفار والعصاة شداد أقوياء مطيعين لله .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِدُوا الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة لا ينفع الكفار اعتذارهم لأنه قد فات زمان التوبة والاعتذار ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أن النار التي تكونون وقودها في الآخرة هي جزاء أعمالكم في الدنيا من الكفر والتكذيب .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ التوبة النصوح هي أن يتوب من الذنب ويندم على فعله ويعزم ألا يعود إليه أبداً روى بن جرير بسنده عن النعمان بن بشير قال : سئل عمر عن التوبة النصوح قال : التوبة النصوح : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ، ثم لا يعود إليه أبداً . وروى نحوه عن عبد الله بن مسعود وابن عباس ومجاهد والضحاك وقال قتادة : الصادقة الناصحة وقال بن زيد : التوبة النصوح الصادقة يعلم أنها صدق ندامة على خطيئته ، وحب الرجوع إلى طاعته ، فهذا النصوح . وقال بن كثير : قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل . ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه . قال : وقال الحسن التوبة النصوح : أن تُبْغِضَ الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته . انتهى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يحسب أنك خطاياكم ﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تستعمون فيها ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ قال القرطبي : معنى يُخْزِي هنا يعذب أي لا يعذبه ولا يعذب الذين آمنوا معه . انتهى وهو قول مقاتل بن سليمان في تفسيره . ﴿تُورِهِمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال بن كثير : قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفيئ . انتهى كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقَسُوا مِن تَوَكُّبِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ سورة الحديد وتلك الظلمة تكون بين موقف القيامة وبين

جهنم فقد روى مسلم في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء خبرٌ من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعةً كاد يصرع منها فقال لم تدفعني فقلت ألا تقول يا رسول الله فقال اليهودي إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إن اسمي محمدٌ الذي سماني به أهلي ) فقال اليهودي جئت أسألك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أينفعك شيءٌ إن حدثتك ) قال أسمع بأذني فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعودٍ معه فقال ( سل ) فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( هم في الظلمة دون الجسر ) قال فمن أول الناس إجازةً فقال ( فقراء المهاجرين ) قال اليهودي فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال ( زيادة كبد النون ) قال فما غذاؤهم على إثرها قال ( ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها ) قال فما شراهم عليه قال ( من عينٍ فيها تسمى سلسيلاً ) قال : صدقت . قال وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبي أو رجلٌ أو رجلان . قال ( ينفعك إن حدثتك ) قال : أسمع بأذني قال أسألك عن الولد قال ( ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتماعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا مني المرأة مني الرجل آتانا بإذن الله ) قال اليهودي لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف فذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه وما لي علمٌ بشيءٍ منه حتى أتاني الله به ) فقلوه عليه الصلاة والسلام ( هم في الظلمة دون الجسر ) يعني الجسر المنصوب على جهنم فإنه يقال للناس يوم القيامة اذهبوا مع ما كنتم تعبدون فيذهب كل قوم مع الهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله حتى يتساقطون في النار وتبقى هذه الأمة مؤمنها وفاجرها فيجعل الله لهم نوراً يمشون به في تلك الظلمة ثم ينطفئ نور المنافقين فيقول المؤمنون ﴿ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٨) وينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ انتظرونا لنأخذ قبساً من نوركم نستضيء به ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ أي ارجعوا إلى مصدر النور الذي أعطيتم فيه نوراً قبل أن يطفأ نوركم فرجعوا وباينوا المؤمنين ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بِابٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ من جهة المؤمنين ﴿ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٣) من جهة المنافقين

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ (٩) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأمرته تبغ له أن يجاهد الكفار والمنافقين يناضلهم باللسان ويغلظ عليهم القول والعقوبة جزاء محاربتهم للإسلام والمسلمين فهذا جزاءهم في الدنيا وأما في الآخرة فمرجعهم الذي يأوون إليه هي نار جهنم وبئس المرجع الذي صاروا إليه جزاء أفعالهم . قال السيوطي : أخرج ابن المنذر وابن أبي

حاتم وابن مردويه والبيهقي في "سُنَّه" عن ابن عباس في قوله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكَفَّارِ﴾ قال : بالسيف ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ قال : باللسان ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ قال : أذهب الرفق عنهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله ﴿جَهْدَ الْكَفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ﴾ قال : بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وليلقه بوجه مكفهر . انتهى ويجاهد المنافق باليد إن أظهر الكفر أو ساعد الكفار كما هدم النبي صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار حين بناه المنافقون ملاذاً لأعداء الله كما في قصة هدمه وهذا من المجاهدة باليد

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (١٠) المراد خيانة الدين لا خيانة العرض فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مصانة أعراضهم وقد روي عن ابن عباس أن امرأة نوح كانت تقول إنه مجنون وامرأة لوط تدل على ضيوفه . يعني كان ذلك في الخفاء دون أن يعلم نوح ولوط عليهما السلام بذلك فكانت تلك خيانتهم ، وروي عن ابن عباس أيضاً أن امرأة نوح كانت تطلع على سرّ نوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به . وعن عكرمة والضحاك أن خيانتهمأ أنهما كانتا مشركتين يعني خيانتهمأ مخالفتهمأ لدين نوح ولوط عليهما السلام فلم ينفعهما صلاح زوجيهما شيئاً عند الله إذ كانتا على الشرك وكان جزاءهما أن يدخلتا النار مع من يدخلها من المشركين والكفار وجعلهما الله مثلاً لكل كافر أنه لن يغني عنه صلاح أحدٍ غيره كائناً من كان حتى لو كان نبياً كريماً كنوح ولوط .

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتَ فِرْعَوْنَ﴾ ولما ذكر الله جل وعلا في الآية السابقة أنه لن يغني عن أحدٍ صلاح غيره وضرب على ذلك مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط أعقبه بذكر مثال يدل على أن الصالح لن يضره فساد غيره ولو كان أقرب قريبٍ إليه وضرب على ذلك مثلاً امرأة فرعون وكان اسمها آسية بنت مزاحم وكانت مؤمنة وزوجها زعيم الكفرة والطغاة في زمانه فلم يضرها كونها زوجته شيئاً عند الله إذ كانت مؤمنةً صالحةً ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فقدمت الجار على الدار ورغبت في جوار ربها جل وعلا ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) وطلبت من ربها الخلاص من زوجها الطاغية وأن يخلصها من عمله قيل أي تعذيبه وظلمه لها وقيل طلبت من ربها أن يخلصها من عمله وهو الكفر فلا تكون كافرةً مثله ، وطلبت من ربها جل وعلا أن ينجيها من القوم الظالمين فلا تكون معهم لا في الدنيا ولا في الآخرة . وإنما ذكر الرب جل وعلا هذا المثل ترغيباً في عدم متابعة الكفار على كفرهم

والظلمة على ظلمهم وأنه تعالى سيخلص عبده الموحد المظلوم المضطهد من ظلم الظالمين وبطش الطغاة المفسدين .

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٣) وأيضا ضرب للمؤمنين مثالا آخر يحتذي به وهي الطاهرة العفيفة الصديقة مريم ابنت عمران حين حصنت فرجها من الوقوع في الحرام فعوضها الرب جل وعلا بأن أرسل إليها جبريل عليه السلام فنفخ في درع جيبها فولجت النفخة في فرجها بأمر الله فحملت بعيسى ابن مريم قال ابن كثير ﴿ فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي: بواسطة الملك وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام . قال ﴿ وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي بقدره وشرعه . انتهى وقال السعدي : وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة ، فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل . انتهى ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤) أي من المطيعين لله وقيل القانتين المصلين . قال صلى الله عليه وسلم ( كَمُلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ ) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم ( أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

من دروس سورة التحريم :

أولاً / عظم كيد النساء فزوجات النبي صلى الله عليه وسلم رغم صلاحهن وتقواهن حملتهن الغيرة على الكيد لبعضهن وتسببن من جراء ذلك في أذية النبي صلى الله عليه وسلم وأن حرم على نفسه ما كان حلالاً له بسبب هذا الكيد حتى عاتبه ربه جل وعلا على ذلك .

ثانياً / ينبغي الصبر على الزوجة فهذا النبي صلى الله عليه وسلم لم يسلم من أذية أزواجه له وصبر عليهن فكيف بمن هو دونه في المنزلة فلا ينبغي أن يتعالى ويتعاضم ويمنعه الكبر من الصبر على زوجته بل يصبر ويحتسب ويعلم أن ذلك أمرٌ طبيعي وقع لمن هو خيرٌ منه فصبر عليه فليقتدي به صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً / أن الامتناع عن بعض الحلال لمصلحة ما جائز بشرط أن لا يعتقد حرمة هذا الحلال .

رابعاً / أن الأسرار الزوجية ينبغي المحافظة عليها وعدم إفشائها للغير وكم من أسرٍ تدمت بسبب إفشاء بعض الأسرار للغير كأهل الزوج أو الزوجة أو لصديقٍ ونحو ذلك فيتدخلون في خصوصيات الزوجين ويشيرون عليهم بما ليس فيه صلاحهم فيتسببون في الفرقة بين الزوجين .

خامساً / أنه يجب على الوالد أن يحث أولاده وزوجته على فعل الطاعات واجتناب المحرمات ويلزمهم بذلك ما استطاع فإنه راعٍ لهم ومسئولٌ عن رعيته .

سادساً / أنه يجب المبادرة إلى التوبة من الذنوب صغارها وكبارها وتركها والندم على فعلها والعزم على أن لا يعود إليها مستقبلاً فتلك هي التوبة النصوح التي أمر الله بها عباده .

سابعاً / أن الطاعات نورٌ يستنير به العبد المؤمن يوم القيامة ويكون نوره على قدر عمله وأما المنافق فيطفئ الله نوره في وقتٍ هو في أعظم حاجةٍ إليه ، وأما الكافر فلا نور له .

ثامناً / أنه لا ينفع العبد عمل غيره ولو كان أقرب قريب فزوجتي نوح ولوط لم ينفعهما زوجيهما شيئاً عند الله رغم عظيم منزلتهما عند الله فكيف بمن هو دونهما ، وهكذا العكس فلا يضر المطيع عمل غيره ولو كان أقرب قريب كزوجة فرعون لم يضرها كفر فرعون وطغيانه .

تاسعاً / أن العبد التقي يرفعه الله جل وعلا دون أن ينظر في جنسه أو لونه أو منزلته عند الناس وقد جعل الله مريم ابنت عمران وامرأة فرعون وهما امرأتان مثلاً لكل تقٍ سواءً كان رجلاً أو امرأة أو حرّاً أو عبد أو شريفٍ أو ضيعٍ أو غير ذلك فلا رفعة عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح .

انتهى تفسير جزء المجادلة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وكتبه سرحان بن غزاي العتيبي يوم الأحد الموافق ( ١٩ / ٧ / ١٤٤٣ هـ )